

مصارع الخلفاء

مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

تأليف
كامل كيلاني



مصارع الخلفاء

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٦٨٥
تدمك: ٦٤٥٦ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨
٢٠١٢/٨/٢٦

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تلفيفون: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ فاكس: +٢٠٢ ٢٢٧٠ ٦٢٥٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2012 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	التاريخ التصويري
٩	تصدير
١١	إلمامة
١٥	تذكرة
١٧	مصرع عمر
٢٣	مصرع عثمان
٣٥	مصرع علي
٤٧	مصرع الوليد الثاني
٦١	مصرع مروان الجعدي
٦٧	مصرع مروان ومصرع الدولة الأموية
٧١	مصرع الأمين
٨٩	مصرع المتوكل
٩٥	مصرع المعتز

التاريخ التصويري

بقلم أبو شادي

يُلْقَى بِكُلِّ طَرِيفَةٍ مَشْغُولاً
عُمْرًا، وَتُشْعِرُنَا الْحَيَاةُ الْأُولَى
أَثْرُ تَزِيدُ بِهِ الْمَاثِرُ طُولاً
كَانَ الْفَنِي فِي طَيِّبِهِ مَحْمُولاً
وَبِكُلِّ فَصْلٍ مَا يُعَدُّ فَصُولاً
كَالْجُوهَرِيِّ تَائِنًا وَأَصْولاً
مِنْ كُلِّ فَاتِنَةٍ تَرُدُّ عَجْوَلًا
صُورًا، وَتَلْمِسُ سِرَّهُ الْمَنْقُولاً
يَغْدُو الْجَمَالُ بِرُوحِهِ مَاهُولاً

قُلْ يَا أَرَقَّ الْكَاتِبِينَ، فَإِنَّ مَنْ
صَوَرَ لَنَا الْمَاضِي تَزَدُّ أَعْمَارَهُ
مَا كُلُّ مَنْ عُدَّ الْمُؤْرِخَ وَضُفْهُ
أَوْجَزْتَ إِيجَازَ الْبَخِيلِ، وَإِنَّمَا
فِي كُلِّ سُطْرٍ لِلْوَقَائِعِ مَعْرَضُ
نَتَامَّلُ الْفَنَانُ فِي إِبْدَاعِهِ
وَنُطَالِعُ الْإِحْسَانَ فِي آيَاتِهِ
وَنُصَاحِبُ التَّارِيخَ فِي أَيَّامِهِ
شَانُ الْأَدِيبِ الْأَلْمَعِي بِيَانِهِ

* * *

عِبَرًا تُسَائِلُ أَنْفُسًا وَعُقُولًا
فَإِذَا الْمُقَاتِلُ صَاحِبُ الْمَقْتُولَا
صَارَ الدَّفَينُ مُمَثَّلًا مَوْصُولاً
دَرَسَتْ، وَأَكْرَمْ مَنْ يَشُوقُ مَلُولاً
راحت «مَصَارِعُهُمْ» وقد تركت لنا
ومَضَوا، وما كانوا سُوَى خَبَرِ لَهُمْ
حَتَّى إِذَا هَمَّتْ بَرَاغَةُ «كَامِل»
و«الْفَنُّ» أَقْدَرْ مَنْ يُعِيدَ مَعَالِمًا

تصدير

بِقَلْمِ صَاحِبِ مَكْتَبَةِ الْوَفْدِ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ

القاهرة في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٩

يمثل هذا الكتاب الطريف حلقة من الدراسات المتنوعة التي يقوم بها الكاتب المتنفن الكبير الأستاذ كامل كيلاني، ويتبعها جمهور الأدباء بشغف وافر في مصر وفي غيرها من الأقطار العربية.

وقد كان من حظي — بالأمس القريب — إذاعة تصنيفه الجميل «مختر القصص» الذي لاقى من الإقبال العظيم عليه بين محبي الأدب ما هو جدير به، وما هو حري بفخر مؤلفه النابغة، فشجعني ذلك على إصدار هذا الكتاب التصويري التاريخي الذي يدل عنوانه على موضوعه، كما تفسر إلمامه الأستاذ كيلاني حكمة وضعه أحسن تفسير. وبديهي أنه ما كان يشق على الأستاذ المؤلف أن يتسع في الشرح والبيان فيتضخم تصنيفه، ولكن مثله يربأ بقلمه عن ذلك، ويؤثر أن يقدم لنا — في كتابه البديع — الطريف من البحث في الطريف من الأسلوب الموجز البلrieg، وفي طي كل هذا من العبر التاريخية ومن التصوير للأخلاق والأهواء الإنسانية وتقلب القدر ما فيه متعة وفائدة للقارئين لا تقدر بثمن.

وإنني أنتهز مناسبة هذا «التصدير» فأشكر للأدباء الكثيرين — في مصر وخارجها — تشجيعهم القيم، وأعدهم ببذلي غاية ما في وسعي من مجهد لإذاعة خير التأليف العصرية التي تتلقاها «مكتبة الوفد»، حتى تبقى سلسلة مطبوعاتها الأدبية موضع فخرٍ ومبعث رضائهم دائمًا.

إِلْمَامَة

بِقَلْمِ كَامِلِ كِيلَانِي

١

ليس أروع للنفس من تمثل مصارع الناس والاستماع إليهم في ساعاتهم الأخيرة، وتعرف ما قالوه وقت حلول الأجل، وأخر ما تفوهوا به من الكلم قبل أن يفارقوا هذا العالم — خيره وشره — فرافقاً أبدياً لا عودة لهم بعده.

وإذا كان هذا هو شعورنا بجلال الموت وروعته، فلا جرم أنه يعظم ويزداد إلى أقصى حد حين يقتربن بعظمة الملك وأبهته، وليس أشجع للنفس من تمثل مصرع خليفة أو قائد كبير أو شاعر عظيم، من أولئك الذين تركوا في هذا العالم أكبر أثر ونقشوا في تاريخه صفحات لا يمحوها الزمن.

ولعل خير ساعة يستعرض فيها المتأمل تاريخ حياة إنسان هي ساعة اختصاره، فإنه يرى — حينئذ — أمام كل صورة من صور الضعف صورة أخرى من صور القوة، ويلمح بجانب تلك الصور المشجية الحزينة ما يقابلها من الصور الماضية البسامية المشرقة.

ألا ترى إلى «الوليد الثاني» مثلاً من موقفيه أمام المصحف؛ يخرقه بالنشاب – وهو في جبروته وطغيانه – ثم يقرؤه معتبراً والناس يحاصرونه، وليس بينه وبين الموت إلا دقائق معدودة!

ألا ترى إلى عثمان – وهو الشيخ الورور – كيف يصرع ويأبى عليه الثائرون أن يدفن، وتظل جثته كذلك ثلاثة أيام، ثم يدفن خلسة، بعد أن يحمل على باب ويسرع الناس به خوفاً من الثائرين فيقرع رأسه الباب؟^١

ألا ترى إلى الأمين – وهو محاصر مهموم – يطلب الخلاص أو النجدة، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً – بعد أن ضيق عليه طاهر سبيل النجاة – وقد علمت ما كان له من عز وسلطان وبطش؟

ألا ترى إليه يجيئه – من قبل – نبأ هزيمة قائد «علي بن عيسى» وقتله – والأمين حينئذ على الشط يصيد السمك – فيقول لحدثه: «ويلك، دعني فإن كوثراً قد اصطاد سمنكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد؟»

فانظر إلى تلك الخاتمة المروعة التي انتهت بها حياة هذا المستهتر الباطش العزيز، وهو يستغاث فلا يغاث، ويطلب النجدة فلا يأبه له أحد، ثم يذبح من قفاه فيذكرنا بقول شاعر المعرة:

وَمَا أَجْلُ عَظِيمٍ مِّنْ رِجَالِهِمْ إِذَا نَؤْمِلَ إِلَّا مَاعِزٌ ذُبْحًا

ونمثله – في صورة أخرى – باطشاً ولاهياً، ومتربخ الأعطااف زهواً، ومصعرًا خده تيهًا، وقابضاً على ناصية الخلق متصرفًا في أرزاقهم وأعمارهم، تعنو له الجباه وتنحنى أمامه الرءوس وينشده أبو نواس قوله:

وَقَدْ كُنْتَ خَفْتَكَ ثُمَّ أَمْنِي مِنْ أَنْ أَخْافَكَ خَوْفَكَ اللَّهِ

.فسبحان المعز المذل.

هو الموت، مثل عنده مثل مقترٍ وراكب نهج مثل آخر ناكب

ودرع الفتى – في حكمه – درع غادة وأبيات كسرى من بيوت العناكب!

٣

هذه التأملات هي الباعث الأول الذي حداي لإخراج هذا الكتاب «مصارع الخلفاء» والكتاب الذي يليه «مصارع الأعيان»، وقد حاولت أن أدون فيهما طائفه من أروع المشاهد التي ذكرها لنا التاريخ، كما حاولت أن أرسم في ذهن القارئ صوراً واضحة مشرقة بالحياة، ولعلي وفقت في هذه المحاولة بعض التوفيق.

هوامش

(١) قال أحد حملته: «حملناه على باب وإن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به، وإن بنا من الخوف لأمراً عظيماً، حتى واريناه في قبره».

تذكرة

يُمْرِّحُ الْحَوْلُ – بَعْدَ الْحَوْلِ – عَنِّي
كَأَنِّي بِالْأُكْلِي حَفَرُوا لِجَارِي
وَتَلَكَ «مَصَارُعُ الْأَقْوَامِ» حَوْلِي
وَقَدْ أَخَذُوا الْمَعَاوِلَ وَانْتَهَوا لِي

* * *

وَالدَّهْرُ يُنْسِي كَهْيَيِّ الْحَرْبِ صَارِمُهُ
وَدَرْعَهُ وَفَتَاهَةُ الْحَيِّ مَجْوَلَاهَا!
مَا كَانَ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ خَوَّلَاهَا!

أبو العلاء

مشرع عمر

هم ضربوا حيدرًا^١ ساجدًا
وحسبك من عمر^٢ إذ طعن

أبو العلاء

ودخل «أبو لؤلؤة» في الناس؛ في يده خنجر له رأسان، فضرب عمر ست ضربات إحداها تحت سرتة وهي التي قتلتة.

المؤرخون

(١) وصفه

رجل أبيض تعلوه حمرة، أشيب أصلع، يصفر لحيته بالحناء ويرجل رأسه، أغسر أغسر، طوال يمشي كأنه راكب.

قال بعض من رآه:رأيت عمر يأتي العيد حافيًا، أغسر، أغسر، متلببًا برداء قطري، مشرقاً على الناس كأنه على دابة، وهو يقول: «أيها الناس هاجروا، ولا تهجروا».

(٢) أخلاقه

ويا أبا محمد، قد رمكته، فرأيتني إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه.

أبو بكر

هذا هو أظهر أخلاق عمر — رضي الله عنه — الميل الشديد إلى التوازن والمساواة؛ يخشى أن يفسد الناس إذا لان، أو يرغّبهم ويذلهم إذا اشتد، فيسلك طريقاً وسطاً بين الشدة واللين.

لقد كان — رحمة الله — ورعاً متقدّساً زاهداً، كما كان حكيماً واسع الخبرة بأخلاق العرب، قوي الشكيمة، لا يتزدّد لحظة في إحقاق الحق وإنصاف المظلوم من ظالمه، يرى أن أحرق أفراد الرعية وأكير أمراء الدولة سواء أمام الحق، وهو صاحب القولة المشهورة في إحدى خطبه: «من ظلمه أمير فلا إمرة عليه دوني!»

وقد روى لنا التاريخ عن سهره على رعيته وعدله وإنصافه وديمقراطيته شيئاً كثيراً، نجتزئ منه بما رواه الغزالى إذ يقول:

أرسل قيسير رسولاً إلى عمر بن الخطاب، لينظر أحواله ويشاهد أفعاله، فلما دخل المدينة سأله أهلها وقال: «أين ملككم؟» فقالوا: «ما لنا ملك، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة!» فخرج الرسول في طلبه فرأه نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع درته كالوسادة، والعرق يسقط من جبينه إلى أن بل الأرض، فلما رأه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه وقال: «رجل جميع الملوك لا يقر لهم قرار من هيبته، وتكون هذه حالته! ولكنك يا عمر عدلت فنمت، وملكتنا يجور، فلا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً!

(٣) لماذا قتل؟

ولهذا الخبر أضراب وأشباه في سيرته الحافلة، وقد كان من الطبيعي جدًا أن تنتهي حياة هذا العادل الساهر على مصالح رعيته بسلام، كما انتهت حياة أبي بكر – رضي الله عنهما – ومهما يجهد الباحث نفسه في تلمس أسباب وجيهة يعلل بها مقتله، فلن يظفر من ذلك بشيء ذي خطر؛ لقد عدل عمر، والعدل أساس الملك، وقام في الناس مثلاً عالياً للشرف والنزاهة والبعد عن التحيز، وتضحية كل ما أوتي من عزم وقوة وصحة ووقت ومال في سبيل النفع والخير العام، فلم يكن يدور بخلد إنسان عاقل أن يغتال حياة هذا الخليفة النزيه العادل المحسن، إلا إذا جاز في العقل أن يفكر الساري في تحطيم مصباحه الذي ينير له الطريق، أو يقدم القاطن على هدم داره وتخریب بيته بيده! لذلك نستبعد أن تكون هناك مؤامرة مدبرة ضده، وإن كنا لا نجزم باستحالة حدوثها.

وأوجز ما نعلل به موته أن زوجة طائشة – قامت برأس غلام مأفون – قتلت على حياة هذا المصلح الكبير!

(٤) كيف كان مصرعه؟

قالوا: خرج «عمر بن الخطاب» يوماً يطوف في السوق، فلقىه «أبو لؤلؤة» – غلام «المغيرة بن شعبة» – فقال: «يا أمير المؤمنين، أعدني على المغيرة بن شعبة، فإن عليّ خراجاً كثيراً».

قال: «وكم خراجك؟» قال: «درهمان في كل يوم!» قال: «وإيش صناعتك؟» قال: «نجار، نقاش، حداد!» قال: «فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: «لو أردت أن أعمل رحًا تطحن بالريح فعلت؟!» قال: «نعم.» قال: «فاعمل لي رحًا.

وكأنما نبهت في نفسه هذه الجملة خاطرًا شريرًا كان غائباً عنه وحركت فيها زوجة من زوات الإجرام، فقال موريًا: «إن عشت لأعملن لك رحًا يتتحدث بها من في المشرق والمغرب..».

ثم انصرف عنه، فقال عمر: «لقد توعدني العبد!»

قالوا بعد كلام لا يتسع هذا المقام إلى تحقيقه ومناقشته: «وقد مر على هذا الوعد ثلاثة أيام.»

(٥) يوم المشرع!

جسد لفف في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد

عاطفة

وفي صبيحة اليوم التالي خرج عمر إلى صلاة الصبح، وكان يوكل بالرجال صفوفاً يسرونها، فإذا استوت جاء هو فكبر.

دخل «أبو لؤلؤة» في الناس؛ في يده خنجر، له رأسان، نصابه في وسطه فضرب «عمر» ست ضربات، إحداهن تحت سرتة. وهي التي قتلتة، وقتل معه «كليب بن أبي الكبير الليثي» – وكان خلفه – فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال: «أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟» قالوا: «نعم هو ذا». قال: «فتقدم فصل بالناس». وعمر طريح! ثم احتمل فأدخل داره، فنادى عبد الله بن عمر، وقال: «اخرج فانتظر من قتلني؟» قال: «يا أمير المؤمنين، قتلتك «أبو لؤلؤة» غلام المغيرة بن شعبة». قالوا: «فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة!»

ثم جعل الناس يدخلون عليه، المهاجرين والأنصار، فيقول لهم: «أعن ملأ منكم كان هذا؟» فيقولون: «معاذ الله!»

قالوا: ودعوا له بالطبيب فلم يجد للقضاء فيه حيلة، وتوفي ليلة الأربعاء – لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ – ودفن بكرة يوم الأربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه، حسبما أوصى!

يد الله في ذاك الأديم الممزق
ليدرك ما أوتيت بالأمس يسبق
بواج في أكمامها لم تفتق
له الأرض يهتز العضاه بأسوق

جزى الله خيراً من أمير، وبباركت
فمن يسع أن يركب جناحي نعامة
قضيت أموراً، ثم غادرت بعدها
أبعد قتيل بالمدينة أظلمت

تظل الحصان البكر يلقي جنيها
نثا خبر فوق المطى معلق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته
بكف «سبنتي»^٢ أزرق العين مطرق^٤

هوامش

- (١) علي بن أبي طالب
- (٢) عمر بن الخطاب، ثانى الخلفاء الراشدين، أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة، بوييع بالخلافة بعد وفاة أبي بكر بيوم واحد، ومكث في الخلافة عشر سنوات وستة أشهر وأياماً ثمانية.
- (٣) نمر جريء.
- (٤) وضيع.

مصرع عثمان

«كنت أحد حملة عثمان^١ — حين قتل — حملناه على باب، وإن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به، وإن بنا من الخوف لأمرًا عظيمًا، حتى واريناه في قبره في حش كوكب.»

(١) تمهيد

ما ذكرت مصرع عثمان إلا ذكرت الهول، وانتابني غم شديد على هذه الضحية — التي قادها إلى الحتف وأوردها موارد التلف — بطانة السوء ورواد المغامن، وطلاب المآرب الذاتية الحقيرة! هذا هو المقتول ظلماً وعدواناً، المسفوک دمه بسبب حماقة جماعة من المحرقين الذين لا هم لهم إلا قضاء لبيانات أو شفاء حزازات.

لقد جبل الناس على ظلم من لا يظلم، والثورة على من يحذب عليهم ويرجو لهم الخير.

وهم لمن لان لهم جانبه أللذع من حیات أنباث السفا

ولقد كان عثمان — رضي الله عنه — يعرف في الناس هذا الخلق، ويعلم من طباعهم كل ما يعلمه الحصيف الأمعي، ولكنه يأبى إلا التقادم في حلمه، والركون إلى طبعه، وهذا.

مَهْجُ الْأَنَامِ وَعَقْلُهُمْ فِي فِلَهٖ يَتَحَارِبُ الطَّبَعُ الَّذِي مَرْجَتْ بِهِ

ألا ترى إلى حكايته، حين زاد في البيت الحرام ووسعه فابتاع من قوم وأبى آخرون؛
فتثار ثائره وهدم عليهم دارهم ووضع الأثمان في بيت المال؛ فصيحوا بعثمان.
أتعرف ماذا فعل؟

أمر بهم أن يحسوا وقال جملته المشهورة مخاطبًا بها أولئك التائرين وهي قوله:
«أندرون ما جرأكم علي؟ ما جرأكم علي إلا حلمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصححوا».

وفي هذه الجملة ما فيها من الألم اللاذع والحسرة القاتلة، ولكن هل اقتدي بعمر في شدته بعد ذلك؟

كلا، بل عاد إلى طبعه فأخرجهم حين كلمه فيهم بعض الناس.
ولو أن عمر أو أبي بكر مكانه لما تهاونا في القصاص، ولأنزلنا بهم ما يستحقون من
نکال، فجعلناهم عبرة للمعتبرين وأمثاله للتأثيرين!

توالت الثورات على «عثمان» - رضي الله عنه - وطمع فيه الناس لحلمه، وتطاولوا عليه، فلما لم يردعهم اجترأ عليه غيرهم.
وتتضارفت أسباب أخرى - سنجملها في الفصل التالي - وتعاون معها قدر لا مفر منه، فانتهت هذه وذاك بإهلاكه، وأدت إلى مصرعه المروع! الذي ترك لزوجته «نائلة بنت الغرافصة» روايته بأسلوبها المؤثر، إذ تقول من كتابها إلى معاویة:

(٢) صریح

«وَإِنِّي أَقْصُ عَلَيْكُمْ خَبْرَهُ، لَأْنِي كُنْتُ مُشَاهِدَةً أَمْرَهُ كُلَّهُ، حَتَّى قُضِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِنْ أَهْلَ الدِّينَ حُصْرُوهُ فِي دَارَهُ يَحْرُسُونَهُ لِيَلِيهِمْ وَنَهَارَهُمْ، قِيَامًا عَلَى أَبْوَابِهِ بِسَلَاحِهِمْ يَمْنَعُونَهُ كُلَّ شَيْءٍ قَدَرُوا عَلَيْهِ، حَتَّى مَنْعِوهُ الْمَاءِ. يَحْضُرُونَ لِهِ الْأَذْنِي، وَيَقُولُونَ لِهِ الْإِفْكَ، فَمَكَثَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ خَمْسِينَ لِيلَةً».»

وهكذا إلى أن تقول: «ثم إنه رمي بالنبال والحجارة، فقتل من كان في الدار ثلاثة نفر، فأتوه يصرخون إليه ليأذن لهم في القتال، فنهاهم عنه وأمرهم أن يردوا عليهم بنبلهم فردوها إليهم فلم يزدهم ذلك على القتال إلا جرأة، وفي الأمر إلا إغراء. ثم أحرقوا باب الدار».

وهنا تقول: «ودخل عليه القوم يتقدمهم «محمد بن أبي بكر» فأخذوا بلحيته ودعوه باللقب. فقال: «أنا عبد الله وخليفةه». فضربوه على رأسه ثلاثة ضربات، وطعنوه في صدره ثلاثة طعنات، وضربوه على قدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم. فسقطت عليه وقد أثخنوه — وبه حياة — وهم يريدون قطع رأسه، ليذهبوا به فأتنى بنت شيبة بن ربعة، فألقت نفسها معي فوطئنا وطنًا شديداً. وعرينا من ثيابنا — وحرمة أمير المؤمنين أعظم — فقتلوا رحمة الله عليه في بيته وعلى فراشه، وقد أرسلت إليكم بثوابه عليه دمه. وإنه والله لئن كان أثم من قتله لما سلم من خذه».

(٣) بعد موته

قالوا: «ونبذ عثمان — رضي الله عنه — ثلاثة أيام لا يدفن، ثم إن بعض الناس كلاماً في دفنه وطلب إليه أن يأذن لأهله في ذلك ففعل، وأذن لهم علي». قالوا: «فلا م سمع بذلك قصدوا له في الطريق بالحجارة وخرج به ناس يسir به من أهله^٢ وهم يريدون حائطاً بالمدينة كانت اليهود تدفن فيه موتاهم يقال له «حش كوكب» فلما خرج به على الناس رجموا سريره، وهموا بطرحة». ويقول آخرون: «إنه أخرج ولم يغسل، وأرادوا أن يصلوا عليه في موضع فأبت الأنصار، وأقبل عمير بن ضابئ — وعثمان موضوع على باب — فنزا عليه، فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: «سجنت ضابئاً حتى مات في السجن».

ولولا أن تداركهم علي بن أبي طالب ونهى الناس عن التمثيل به لما علم إلا الله إلى أي حد كانوا يتمادون في التمثيل به، وقد انطلق به حتى دفن في «حش كوكب».^٣

(٤) الأسباب التي أدت إلى مصرعه

(١-٤) ضعفه

ألا فقد والله عبتم عليًّا بما أقررتם لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله،
وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له — على ما أحبتتم أو كرهتم —
ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي وكفت يدي ولسانني عنكم، فاجترأتم عليًّا.

عثمان

أجملنا في الفصل السابق الأسباب التي أدت إلى مصرعه ووعدنا بتفصيل أهمها في هذا الفصل، ونحن ننجز وعدنا الآن:

أول الأسباب التي انتهت بعثمان — رضي الله عنه — إلى هذه الخاتمة المفجعة ضعفه الشديد ولين جانبه وف्रط حياته.

لقد كان — رضي الله عنه — ذكياً فطناً عارفاً بأخلاق الناس، ولكن الإرادة القوية والعزمية الجريئة والبطش بالمذنبين، وإغفال الرحمة، ونسيان كل اعتبار في سبيل تثبيت الأمن وتوطيد دعائم الملك، والمضي في إنفاذ خطة جلية حازمة وتطبيق سياسة بعينها، هذه هي الحال التي كانت تنقصه، وهي وحدها الحال الجديرة بكل حاكم يريد توطيد ملكه وتثبيت دعائمه.

لم تغب عنه صفات عمر ومزاياه الباهرة، ولا غفل عن تقليله في كثير من أموره، ولكن نقصته شخصية عمر القاهرة الجباره التي تهابها الناس وتلبى رغباتها وتنحنى أمامها خاضعة. وتتفند إشارتها راضخة. وتخشى أن تحيد عنها قيد أنملة حتى لا تقع تحت طائلة عقابه، أو يصيبها قصاصه الذي لا ينجو منه مخطئ ولا يفلت منه مسيء.^٤

وما لنا نحاول وصف عثمان وقد رسم لنا علي — رضي الله عنه — صورة ناطقة لم تدع بعدها غاية لواصفيه إذ يقول له: «الناس ورأيي وقد كلاموني فيك. ووالله ما أدرى ما أقول لك وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنببلغكه. وما خصصنا بأمر دونك، وقد رأيت وسمعت وصحت رسول الله ﷺ، ونلت صهره. وما ابن قحافة «أبو بكر» بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك». إلى أن يقول: «فإله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمى، وتعلم من جهل، وإن الطريق لواضح بين ...» فإذا اعتذر عثمان إليه بأنه يقتفي أثر عمر أجابه «علي»

إجابته الموقعة إذ يقول: «سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولد إنساناً يطأ على صماخه، إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنت لا تفعل. ضعفت ورفقت على أقربائك».»

فإذا ذكر له عثمان أن معاوية كان ممن ولاد عمر مدة خلافته كلها وأنه يقتدي كذلك بعمر في توليته، أبان له «علي» الفرق بين العملين، فقال: «أنشدك الله! هل تعلم أن معاوية كان أخو福 من عمر، من «يرفأ» غلام عمر؟ قال: «نعم».

قال علي: «فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها؛ فيقول للناس: «هذا أمر عثمان». فتبليغك ولا تغير على معاوية!»

ولعل في هذه الجمل أبلغ شرح يلمس منه القارئ مواطن الضعف في عثمان رضي الله عنه، التي أطمعت فيه سواه، وأدت إلى استهانة الناس بأمره!

أمثلة من حياة الناس عليه

ولقد وصل احتراء الناس عليه إلى أبعد الغايات.

فهذا رجل يشتمه وهو يخطب الناس على عصا النبي في جمع حاشد، ويصبح به: «قم يا نعلٌ فانزل عن هذا المبرأ»^٥ ثم يأخذ العصا فيكسرها على ركبته.

وذلك^٦ يمر به عثمان، وهو جالس في ندى من قومه، في فناء داره، ومعه جامعة^٧ فيسلم
عثمان فيرد القوم، فيقول ذلك الرجل: «لم تردون على رجل فعل كذا وكذا».
ثم يقبل على عثمان فيقول له: «واله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لترتكن
بطانتك هذه!»

وتدور بينهما مناقشة^٨ يقرع فيها الخليفة أشد تقرير ويجرئ عليه أقبح اجراء. وهذه مؤامرة مجرمة يكشف أمرها فيجاج أفرادها — بغير السيف — ثم يطلق سراحهم فيؤلبون عليه الثوار ويكونون أول من يرفع علم الثورة في وجهه.^٩ وتلك جماعة تحصبه وهو يخطب، فإذا خر صريعاً حمل إلى منزله، وهذا ابن العاص يفاخره ويتطاول عليه فلا يدع له مجالاً للقول، وتنتهي المناقشة بانكسار عثمان.

وهذا منشوره الذي كتب به في الأمصار ينبيء عن ضعفه وفرط لينه، إذ يقول:
«والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئاً
كرهتموه، ولا يعصي الله فيكم إلا استعفيتمن منه؛ أنزل فيه عندما أصبتكم حتى لا يكون
على حجة!»
ومتى لأن الخليفة للناس إلى هذا الحد صعب إرضاؤهم ووقف أطماعهم عند غاية
لا يعودونها.

(٤-٢) بطانة عثمان ونصحاؤه

أما بطانة عثمان ونصحاؤه فكان أكثرهم مداهناً؛ له مآرب يسعى إلى تحقيقها – كلفه ذلك ما كلفه – وكان بعض نصائحه أحمق، مكروهاً من الناس، ولنلم مسرعين بأهم نصائحه والمشيرين عليه، الذين لا يسع من يقرأ مصرع عثمان إلا أن يطيف بذنه ما قام به كل منهم من الدور الخطير الذي أدى إلى مصرعه.
ونبدأ بأولهم:

مروان الأحمق

فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومرwan ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا
محبة!

نائلة زوج عثمان

أقل ما نصف به مرwan الحماقة والاندفاع، فهو وحده أكبر دليل على صدق المثل القائل «عدو عاقل خير من صديق جاهم» وعلى صحة قول ابن عبد القدوس:

ما يبلغ الأعداء من جاهم ما يبلغ الجاهم من نفسه

حسب القارئ أن يعلم أن مروان هذا استطاع بحمقه وحمق أصحابه أن يوغر نفس «علي» على عثمان، قال ابن العباس:

وقد كان علي له^{١٠} صاحب صدق، حتى أودر نفس علي عليه، جعل مروان وسعيد وذووهما يحملونه على «علي» فيحتمل ويقولون: «لو شاء ما كلمك أحد».

وذلك على أن علياً يكلمه وينصحه ويغليظ عليه في المنطق في مروان وذويه فيقولون لعثمان:

«هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته؟ فما ظنك بما غاب عنك منه؟»

قالوا: «فلم يزالوا بعي حتى أجمع ألا يقوم دونه..»

والحق أن علياً بذل النصح لعثمان وأبان له الخطة الرشيدة وأنقذه من مأزق محربة ولكن:

متى يبلغ البناء يوماً تاماً إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ولقد قال علي قوله الشهيرة التي تدل على تأله الشديد من تردد عثمان: «وما يريد عثمان أن ينصحه أحد، اتخذ بطانة أهل غشن ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستنزل أهلها».

وهذه الجملة على شدتها فيها كثير من الصدق، وإن كان في آخرها شيء من المغالاة.

وماذا يصنع علي بعد أن هدا ثائرة الناس وخفف من غلوائهم إذ أعطاهم عثمان مهلة ثلاثة أيام، فلما انتهت واجتمعوا على بابه، مثل الجبال — كما يقول المؤرخون — قال عثمان لمروان: «اخرج فكلمهم فإني أستحي أن أكلمهم».

قالوا: فخرج مروان إلى الباب — والناس يركب بعضهم بعضاً — فقال: «ما شأنكم؟ قد جمعتكم كأنما قد جئتم لنذهب؟ شاهت الوجوه، كل إنسان آخذ بأذن صاحبه! جئتم تريدون أن تنزعوا ملكتنا من أيديينا؟ اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا!»

فكانت هذه الخطبة — المملوئة حمّاً ورعونة — شرارة شديدة الأثر في إلهاب نار الثورة.^{١١}

ولئن كان مروان قد أفلح في إثارة الناس ضد عثمان بهذا الاندفاع السخيف، فقد أفلح أيضًا في إغضاب «علي» وتخليه عن الدفاع عن عثمان بعد أن قال له قوله المأثورة:

أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به، والله ما مروان بذيرأي في دينه ولا في نفسه! وايم الله إني لأراه سيورنك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد — بعد مقامي هذا — لمعاتبتك، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك.^{١٢}

وقد صدق علي؛ فقد أورده مروان ثم لم يصدره، وكان هذا آخر لقاء بين علي وعثمان رضي الله عنهما!

عمرو بن العاص

أنا أبو عبد الله إذا حككت فرحة نكأتها، إن كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان.

عمرو بن العاص^{١٣}

ولعل هذه الجملة تمثل بوضوح — لا مزيد عليه — مقدار حقد ابن العاص عليه. وكثيراً ما تظاهر له بمظهر الناصح سرًّا ثم جبهه علانية، ألا ترى إليه يستشيره عثمان — في جماعة من صحبه — فيقول له عمرو:

أرى أنت قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعترم أن تعتل، فإن أبيت فاعترم أن تعزل، فان أبيت فاعترم عزماً وامض قدماً فيه.

فإذا تفرق القوم قال عمرو:

والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليًّا من ذلك، ولكن قد علمت أن سيببلغ الناس قول رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقو بي فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شرًّا.

أيُخْفِيَ عَلَيْكَ مَا فِي هَذَا الاعتذار من المكر والدهاء؟

وانظر إلى كيده وهو يصبح بعثمان على ملأ من الصاخبين المتمردين الذين وقف يخطبهم
عثمان:

يا أمير المؤمنين

إِنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهَابِيرٍ^٤ وَرَكِبْنَاهَا مَعَكَ، فَتَبَّ نَتَبَّ.» لَا تَنْسِ مَنَاقِشَتِهِ الْجَرِيَّةُ
لِعُثْمَانَ الَّتِي ذَكَرَهَا الطَّبَرِيُّ فِي الْجَزءِ الْخَامِسِ (ص ١٠٨) وَأَحَبَّ أَنْ تَرْجِعَ
إِلَيْهَا.

ولقد حدثنا المؤرخون أنه خرج حتى نزل منزله بفلسطين فكان يقول: «والله إن
كنت لأقوى الراعي فأحرضه عليه». ^{١٥}

معاوية^{١٦}

فَلَمَّا جَاءَ معاوِيَةَ الْكِتَابَ تَرْبِصَ بِهِ وَكَرِهَ إِظْهَارَ مُخَالَفَتِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ.
الْمُؤْرَخُونَ

ولعلك تعجب من ذكر معاوية في هذا المقام، ولكن مم العجب، وأقل ما يقال في هذا
الداهية أنه كان يستطيع إنقاذ عثمان من القتل وأنه أضاع هذه الفرصة عمداً وفاقد
خطة مرسومة.

لقد استتجد به عثمان، لينقذه من مخالب الموت، ولكن شبح الخلافة لاح لمعاوية
فتباطأ عن نصرة عثمان، وأنساه عرض الدنيا الزائل وزخرفها الكاذب واجب الوفاء
والنجدة.

قالوا: لما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد أبىعث عليه من الناس كتب إلى معاوية
بن أبي سفيان وهو بالشام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَدْ كَفَرُوا، وَأَخْلَفُوا الْطَّاغِيَةَ وَنَكْثُوا الْبَيْعَةَ، فَأَبْعَثْتَ إِلَيَّ
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ مَقَاوِلَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى كُلِّ صُعْبٍ وَذُلْلَوْلٍ.

قالوا: «فَلِمَا جَاء معاوِيَة الْكِتَاب تَرْبَصَ بِه وَكَرِه مُخالَفَة أَصْحَاب الرَّسُول. وَقَدْ عَلِمَ اجْتِمَاعَهُم».»

وليس بخفي على أحد مغزى هذا الكلام وسر امتناعه عن نصرة أحق الناس بنصرته.^{١٧}

ومن تهكمات القدر وعجائب الأيام ومضحكات العبر أن يحرض ابن العاص على قتل عثمان ويتخلى معاویة عن نجدة، ثم يطالبان بدمه على بن أبي طالب الذي أخلص له النصيحة وأبان له طريق النجاة واضحاً فتنكه.

هوامش

(١) ثالث الخلفاء الراشدين، ولـيـ الخـلافـة سـنة ٢٤ وـقـتـل سـنة ٣٥ هـ وـعـمرـه حـيـنـئـ ٨٢ سـنة، وـفـتـحتـ فـيـ عـهـدـهـ بـرـقةـ وـطـرـابـلـسـ الـغـرـبـ وـالـنـوـبةـ وـجـزـيرـةـ قـبـرـصـ، وـبـلـادـ جـنـوـبـيـ التـرـكـسـتـانـ، وـقـدـ بـوـيـعـ لـعـشـرـ بـقـيـنـ مـنـ الـمـحـرـمـ، بـعـدـ مـقـتـلـ عـمـرـ بـثـلـاثـ لـيـالـ، قـالـواـ: «وـلـاـ بـاـيـعـهـ أـهـلـ الشـورـىـ خـرـجـ وـهـ أـشـدـهـمـ كـآـبـةـ، فـأـتـيـ مـنـبـرـ رـسـوـلـ اللـهـ فـخـطـبـ النـاسـ، فـحـمـدـ اللـهـ وـصـلـىـ عـلـىـ النـبـيـ وـقـالـ: «إـنـكـمـ فـيـ دـارـ قـلـعـةـ، وـفـيـ بـقـيـةـ أـعـمـارـ، فـبـادـرـواـ آـجـالـكـمـ، بـخـيـرـ ماـ تـقـدـرـونـ عـلـيـهـ ...» إـلـخـ خـطـبـةـ مـمـلـوـءـةـ زـهـداـ وـورـعاـ.

صورته

مرربع، ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، أسمر اللون، رقيق البشرة بوجهه نكتات من جدرى، حسن الشعر كبيره، شعره يكسو ذراعيه، عظيم اللحية يصرفها، أصلع، أروح الرجلين، عظيم الكراديس، عظيم ما بين المنكبين.

(٢) هـمـ مـروـانـ بـنـ الـحـكـمـ وـثـلـاثـةـ مـنـ مـوـالـيـهـ وـابـنـهـ وـزـوـجـهـ.

قالوا: «فـنـاحـتـ اـبـنـتـهـ وـرـفـعـتـ صـوـتـهـ تـنـدـبـهـ فـانـهـالـتـ الـحـجـارـةـ حـتـىـ كـادـتـ تـرـجمـهـ».»

(٣) فـلـمـ ظـهـرـ مـعـاوـيـةـ عـلـىـ النـاسـ أـمـرـ بـهـمـ ذـلـكـ الـحـائـطـ حـتـىـ أـفـضـىـ بـهـ إـلـىـ الـبـقـيعـ، فـأـمـرـ النـاسـ أـنـ يـدـفـنـوـ مـوـتـاهـمـ حـوـلـ قـبـرـهـ، حـتـىـ اـتـصـلـ ذـلـكـ بـمـقـابـرـ الـمـسـلـمـينـ.

(٤) النـعـتـلـ الشـيـخـ الـأـحـمـقـ، أـوـ الذـكـرـ مـنـ الضـبـاعـ، وـهـذـاـ لـقـبـ رـجـلـ مـنـ أـهـلـ مـصـرـ، كـانـ طـوـيلـ الـلـحـيـةـ، وـكـانـ عـثـمـانـ – إـذـاـ نـيـلـ مـنـهـ وـعـيـبـ – يـشـبـهـ بـهـ لـطـولـ لـحـيـتـهـ.

(٥) كـانـ اـسـمـ هـذـاـ الرـجـلـ «جـهـجـهـاـ الـغـفارـيـ» وـفـيـ روـاـيـةـ أـخـرىـ أـنـهـ صـاحـ بـهـ «يـاـ عـثـمـانـ، أـلـاـ هـذـهـ شـارـفـ نـاقـةـ مـسـنـةـ هـرـمـةـ» قـدـ جـثـنـاـ بـهـ، عـلـيـهـ عـبـاءـ وـجـامـعـةـ

«سلسلة» فانزل فلندرك العبادة ولنطرحك في الجامعة ولنحملك على الشarf، ثم
نظرحك في جبل الدخان!»

(٦) هو «جبلة بن عمرو الساعدي» قالوا: «وهو أول من اجترأ عليه..»

(٧) سلسلة.

(٨) أحب ألا تفوت القارئ قراءة هذه المناقشة في تاريخ الطبرى «جزء ٥ ص ١٠٨».

(٩) ارجع إلى الطبرى «جزء ٥ ص ١٠٢».

(١٠) لعثمان.

(١١) ارجع إلى حكاية الكتاب الذي زوروه على عثمان وكتبه إلى عامله في مصر في
الجزء الخامس من الطبرى «١١٥» و «١٢٠».

(١٢) قالوا فلما خرج علي دخلت عليه نائلة ابنة الفرافصة «امرأته» فقالت: «أتكلم
أو أسكت؟» فقال: «تكلمي». فقالت: «قد سمعت قول علي لك وإنه ليس يعاودك، وقد
اطلعت على مروان يقودك حيث شاء». قال: «فما أصنع؟» قالت: «تتقى الله وحده لا
شريك له، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس
له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما ترك الناس لمكان مروان منك، فأرسل إلى
علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصي».

قالوا: فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه وقال: «قد أعلمه أنه لست بعائذ».

قالوا: فلما بلغ مروان قول نائلة فيه، جاء إلى عثمان فجلس بين يديه فقال: «أتكلم أو
أسكت؟» قال: «تكلم». فقال: «إن بنت الفرافصة ...» فقال عثمان: «لا تذكرنها بحرف
فأسوي لك وجهك، فهي والله أنسخ لي منك». «فكف مروان».

(١٣) لعل ما أبدع ما وصفه به ابن عباس هو قوله حين قام عمرو بالموسم فأطوى
معاوية وبني أمية وتناولبني هاشم ثم ذكر مشاهده بصفين فقال ابن عباس:

يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك ومناك ما في يد غيره،
فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته
— وكل راض بما أخذ وأعطى — فلما صارت مصر في يدك تتبعك بالعزل
والتنقص حتى لو أن نفسك فيها لأنقيتها إليه.

وذكرت مشاهدك بصفين، فما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولا نكأنا حربك،
وإن كنت فينا لطويل اللسان قصير السنان، آخر الحرب إذا أقبلت وأولها إذا
أدبرت.

لك يدان، يد لا تبسطها إلى خير، ويد لا تقبضها عن شر.
ووجهان وجه مؤنس وجه موحش.

ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري أن يطول حزنه على ما باع
واشتري، لك بيان وفيك خطل، ولكرأي وفيك نك، ولك قدر وفيك حسد،
فأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك.

(١٤) مهالك.

(١٥) وفي رواية أخرى أنه قال: «إن كنت لأحرض عليه حتى إني لأحرض عليه
الراعي في غنمه في رأس الجبل.»

(١٦) لعل أبدع وصف لمعاوية هو قول عمرو بن العاص: «ما رأيت معاوية قط
متكتئاً على يساره، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، كاسراً إحدى عينيه، يقول للذي
يكلمه: «يا هناه! إلا رحمت الذي يكلمه..»

(١٧) وكان معاوية قد قال لعثمان غادة ودعا وخرج: «يا أمير المؤمنين، انطلق
معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا.»
فقال له عثمان: «أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط
عنقي.»

قال: « فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة
أو إياك.»

فلما حانت ساعة الجد ظهر أن كل ذلك وعود خلابة وكلمات معسولة لا قيمة لها.

مشرع على

«هم ضربوا حيدرًا^١ ساجدًا وحسبك من عمر إذ طعن»

أبو العلا

(١) تمهيد

من ذكر علياً^٢ فقد ذكر أسمى الصفات الإنسانية؛ النزاهة، الاستقامة، الشجاعة، الصراحة، التبل، القوة، الفطنة.

وإن أوجز ما يقال في علي أنه اقتبس أكبر قسط من أخلاق النبوة، وعرف كيف يستقىد من أخلاق الرسول.

ربما قال قائل: «ولكن علياً كان شديد البطش، وقد ألف الناس من ليونة عثمان ما جعلهم ينفرون من شدة علي». ذلك حق، ولويت علياً – رضي الله عنه – تريث قليلاً فلم يعزل بعض الولاة ويه

عزل الباقيين قبل أن يستتب له الأمر، وتستقر له الخلافة، ولكنها الصراحة تأبى عليه أن يعلن خلاف ما يضرم، والغيرة على الحق تدفعه إلى الذود عنه، جالباً عليه من عداوة الناس ما جلب!

كان عثمان ليئن فأطمع لينه الناس فيه، وكان «علي» شديداً فانتفع خصومه بهذه الشدة، فاستمالوا الناس إليهم بما أتوه من دهاء وحذق، وحسبك أن تعلم أي قوتين هائلتين من قوى العالم النادرة كانتا تناوئنه لتلتسم له ألف عذر!

لقد تعافت سياسة معاوية، ودهاء ابن العاص، على استغلال صراحة على واستقامتها، فلم يتركوا وسيلة من وسائل المكر والحيلة إلا سلكاها، ولا دعوى من دعاوى الكيد إلا أذاعها، حتى أوهما أنصارهما أنه قاتل عثمان، وأنه مستميت في طلب الخلافة، بل نحلاه ما هو أكثر من ذلك وأشنع، وألصقا به من الصفات ما يعلمان علم اليقين أنه أبعد الناس عنه، وأشدhem براءة منه.

حسب القارئ أن يذكر المثال التالي، ليعرف مدى دعayıتما ومقدار ما تحدثه مثل هذه المفتريات في نفوس الناس وفي إلهاب قلوبهم حماساً وبغضلاً لعلي!

قال بعض من شهد تلك المعارك الهائلة:

«فإنهم كذلك إذ خرج عليهم فتى شاب وهو يقول:

أنا ابن أرباب الملوك غسان
والدائن اليوم مدين عثمان
إني أتاني خبر فأشجان
أن علياً قتل ابن عفان

ثم يشد، فلا ينتهي حتى يضرب بسيفه، ثم يشتم ويلعن ويكثر الكلام، فقال له «هاشم بن عتبة»: «يا عبد الله إن هذا الكلام بعده الخدام، وإن هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فإنك راجع إلى الله فسائلك عن هذا الموقف، وما أردت به..»

قال: «فإنني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي، كما ذكر لي، وأنتم لا تصلون أيضاً، وأقاتلهم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم أردتموه على قتله..»

فانظر إلى أي مدى طوح بهما الكيد لعلي بن أبي طالب والرغبة في تأليب الناس عليه!

على أن علياً ظل متصرفاً - رغم كل هذه الدسائس - وكاد يتم له الأمر لولا حيلة ابن العاص التي لجأ إليها أخيراً، حين رفع المصاحف ودعا علياً إلى التحكيم، فافترق أصحابه شيئاً، ودب في صفوفهم دبيب الشقاق والفتنة، وانتهى الأمر بمصرعه المروع.

(٢) ليلة المصرع وساعة الهول

قال محمد بن الحنفية: «كنت والله، وإنني لأصلى تلك الليلة التي ضرب فيها علي، في المسجد الأعظم – في رجال كثير من أهل مصر – يصلون قريباً من السدة، ما هم إلا قيام وركوع وسجود، وما يسامون، من أول الليل إلى آخره، إذ خرج علي لصلاة الغداة، فجعل ينادي: «أيها الناس، الصلاة، الصلاة»، فما أدرى أخرج من السدة فتكلم ألم لا. فنظرت إلى بريق وسمعت: «الحكم لله يا علي، لا لك ولا لأصحابك!» فرأيت سيفاً، ثم رأيت ثانياً، ثم سمعت علياً يقول: «لا يفوتنكم الرجل!» وشد الناس عليه من كل جانب. قال: «فلم أبرح حتى أخذ «ابن ملجم» وأدخل على «علي»، فدخلت – فيمن دخل الناس – فسمعت علياً يقول: «النفس بالنفس» إن أنا مت فاقتلوه كما قتلتني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي!»

(١-٢) وصاياه قبل موته

و قبل أن تفيض روحه الطاهرة إلى بارئها، نقية بارة رسم لبنيه صورة يحتذونها، أوجز ما نصفها به أنها تمثل منزلة، وتصف ما امتازت به نفسه من خلال عالية وأخلاق سامية فريدة، هي جماع الفضائل:

قالوا: إن أحد الناس قد دخل عليه فسأله: «يا أمير المؤمنين، إن فقدناك – ولا نفقدك – فنبایع الحسن؟»
قال: «ما أمركم ولا أنهاكم، أنت أبصر!»
فرد عليه مثلاها.

فدعاه حسناً وحسيناً، فقال: «أوصيكما بتقوى الله، وألا تتبعا الدنيا – وإن بغتكما – ولا تبكيما على شيء زوى عنكما، وقولا الحق، وارحاما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للأخرة، وكونا للمظلوم ناصراً، واعملما بما في الكتاب، ولا تأخذكم في الله لومة لائم». قالوا: ثم نظر إلى محمد بن الحنفية، فقال: «هل حفظت ما أوصيتك به أخيك؟» قال: «نعم!»

قال: «فإنني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخيك لعظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما!»
ثم قال: «أوصيكما به، فإنه شقيقكم وابن أبيكم، وقد علمتما أن أباكم كان يحبه ...» وهكذا إلى آخر هذه الوصية الثمينة.

وصيته الأخيرة

قالوا: فلما حضرته الوفاة أوصى فكانت وصيته:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما أوصى به «علي بن أبي طالب»، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون. ثم إن صلاتي ونسكي ومحبتي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين.

ثم أوصيك يا حسن، وجميع ولدي وأهلي، بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جمیعاً ولا تفرقوا، فإني سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول: «إن صلاح ذات البين أفضل من عاممة الصلاة والصيام!» انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم، يهون عليكم الحساب، الله الله في الأيتام، فلا تعنوا أفواههم، ولا يضيعن بحضرتكم، والله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم عليه السلام، ما زال يوصي به حتى ظننا أنه سيورثه، والله الله في القرآن فلا يسبقونكم إلى العمل به غيركم ...

وهكذا إلى أن يقول:

والله الله في الفقراء والمساكين، فأشرکوهم في معايشكم، والله الله فيما ملك أيمانكم ...» ثم يقول: «ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقولي الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم، وعليكم بالتواصل والتبادل وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعذوان، واتقوا الله؛ إن الله شديد العقاب! حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم، أستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله!

الجملة الأخيرة

قالوا: «ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله.» حتى قبض، وهكذا انتهت حياة هذا البطل، وختم تاريخه الحافل بجلائل الأعمال!

(٣) أهم الأسباب التي أدت إلى مصرعه

يا معاوية! إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب؛ إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس، وتستميل به أهواهم، و تستخلص به طاعتهم إلا قوله: «قتل إمامكم مظلوماً، فنحن نطلب بدمه». فاستجاب له سفهاء طغام، وقد علمنا أن قد أبطأته عنه بالنصر، وأحببته له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب! ورب متنمي أمر وطالبه، الله – عز وجل – يحول دونه بقدرته، وربما أوتى المتنمي أمنيته، وفوق أمنيته. ووالله ما لك في واحدة منها خير! لئن أخطأت ما ترجو، إنك لشر العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تمني، لا تصبه حتى تستحق من ربك صلي النار، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله!

ابن ربيعي التميمي

(٤-٣) دم عثمان

أنطل دم عثمان؟ لا والله، لا أفعل ذلك أبداً؟

بهذه الجملة وأشباهها يريد معاوية على كل من ينشد العدل ويطلب إليه «أن يعدل عن فتنته التي أثارها، ويتقى الله في تفرق جماعة هذه الأمة وسفك دمائها بينها». وبهذا السلاح الماضي الأخاذ بالأ بصار يستميل الناس إليه ويؤليب جموعهم ضد «علي» وأشياع «علي» وأنصاره، كأنما لا هم له من الدنيا إلا الثأر لعثمان وحده، ولا غرض له في خلافة أو ملك! وبهذا المعلول القوي يهدم كل دعوة للتوقيق، ويدرك كل صرح للوئام من أساسه، فتدهى جهود المخلصين والراغبين في حقن دماء المسلمين سدى، ويسد الطريق سداً على كل خطيب بلين، ويرد به على كل حجة، باللغة ما بلغت من الأصلالة والصدق! فإذا قال له وفد «علي»: «يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله – عز وجل – محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك، وإنني أنسشك الله عز وجل أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها». أسرع معاوية فقطع عليه الكلام، وقال له: «هل أوصيت بذلك صاحبك؟»

فإذا أجابه: «إن صاحبى ليس مثلك، إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر، في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ!» قال له معاوية: «فيقول ماذا؟» فإذا أجابه بقوله: «يأمرك بتقوى الله عن وجّل، وإنجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك.»

ارتبك معاوية، ولم يبق أمامه ما يبرر به إحداث هذه الفتنة الشعواء التي أودى نارها، وأشعل ضرائمها في سبيل الخلافة، وضحي من أجلها بالألاف من أرواح المسلمين البرية، وثمة يقذف بهذا الحجر في وجه ناصحه فيقول له: «ونطل دم عثمان رضي الله عنه؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً.»

وبذلك يبرر سلوكه وتمرده على الخليفة «علي» ويتظاهر بالغيرة على دم عثمان أن يطأ، ويذهب دون أن يثار له، وقد كان — بالأمس — يتباطأ عن حقنه، وصون حياة صاحبه وهو يستنجده فيصم أذنيه عن سماع دعوته، ولا يخف لنجدته، كما يخف الآن للانتقام منمن يزعهم قاتليه!

فإذا توادع القوم — يوم صفين — واختلفت الرسل فيما بين علي ومعاوية كان ردّه على الوفود شيئاً بريءاً على سابقיהם من قبل.^١

فباسم المطالبة بدم عثمان أهدى دماء المسلمين، وباسم المطالبة بدم عثمان اندلعت نيران الفتنة فالتهمت جمّهُرَة من أبطال المسلمين وقاده الرأي فيهم، وباسم المطالبة بدم عثمان ستر معاوية وابن العاص وأشياعهما أطمعاً لهم وأغراضهم السياسية وألبوا الجموع الظاهرة على «علي بن أبي طالب». .

(٢-٣) الدسائس

لم يكتف معاوية وأشياعه بهذا السلاح وحده في محاربة «علي». بل عززوه بأسلحة أخرى أهمها سلاح الدس والإيقاع بين أنصار علي، ولم تكن الحرب بينهما — على الحقيقة — إلا سلسلة متصلة من الحلقات من دسائس معاوية وابن العاص، وحسب القارئ أن يعلم أن معاوية لم يترك وسيلة من وسائل الإيقاع والدس للوصول إلى إربته والنكاشة بخصمه إلا سلّكها بلا تردد.

ألا ترى إليه يحاول استمالة «قيس بن سعد» الذي ولاد «علي» على مصر، فإذا أخفق في سعيه ويئس من استمالته إليه لجأ إلى الدس، فأشاع في الشام أن والي مصر على اتفاق

معه، ثم عمل دائياً على نشر هذه الإشاعة وتقويتها حتى يحسبها الناس حقاً لا مراء فيه؛ فإذا بلغ علياً ذلك عزله وولى محمد بن بكر مكانه! بل هو يحاول الإيقاع جهراً بين اثنين من ولد علي حين قطع أحدهما على الآخر قوله ليرد على معاوية، فأراد معاوية أن ينتهز هذه الفرصة للإيقاع بينهما فأخفق، ولا تنس حكاية المصاحف التي أوقعت الفرقة في صفوف أنصار «علي» وفرقتهم شيئاً، وحكاية ابن العاص وأبي موسى الأشعري، التي زادت في الانقسام والتفرقة، فليست كل هذه إلا آثاراً ناطقة شاهدة بما للقوم من دهاء ومكر وقدرة على استغلال الظروف والإيقاع بين الناس!

(٣-٣) شدة علي

أما شدة علي فقد أشرنا إليها في كلمتنا السابقة ولا نراها في حاجة إلى الإسهاب فيها، فقد عرفت أن علياً كان لا يتسامح في الحق ولا يقبل فيه لومة لائم، وكان يحاسب على القطمير، وقد بدأ عمله بعزل كثير من الولاة قبل أن يستتب له الأمر، ونحب أن نضيف إلى ما أسلفناه مثلاً واحداً نجترئ به عن أمثلة كثيرة:

قال ابن أبي رافع – وكان خازناً لعلي على بيت المال: «دخل «علي» يوماً، وقد زينت ابنته، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال كان قد عرفها، فقال: «من أين لها هذه؟ الله علىَّ أن أقطع يدها!»

قال ابن أبي رافع: «فلما رأيت جده في ذلك، قلت: «أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي، ومن أين كانت تقدر عليها، لو لم أعطها». فسكت.

فإذا أضفنا – إلى ذلك – اعتماده على نفسه وعدم استشارته سواه من أولي الرأي، مما أهدى عليه أمثال طلحة والزبير فنقضا بيته وانضما إلى السيدة «عائشة» التي شبت أول نيران الفتنة في موقعه «الجمل»، وأضفنا إلى ذلك حذق معاوية في اكتساب قلوب الناس واجتذابهم إليه، وبغض السيدة عائشة – رضي الله عنها – لعلي بعدما أبداه من الرأي في حادثة الإفك من قبل، وذكرنا ما أبداه معاوية من المهارة السياسية في استرداد مصر وأخذ الحرمين واليمن أثناء انشغال علي بالخارج، نقول: إذا ذكرنا هذه الأسباب سهل علينا أن نفهم سر هذه الفتنة الشعواء التي انتهت بقتل علي. وقد كانت – لولا عجائب القدر – منتهية بقتل معاوية وابن العاص أيضاً، ولكنه القدر المحتوم والأجل الذي لا مفر منه قد انتهى ولا راد لقضاء الله، قالوا: اجتمع «ابن ملجم» و«البرك بن

عبد الله» و«عمرو بن بكر التميمي» فتناكروا أمر الناس، وعابوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر، فترحموا عليهم، وقالوا: «ماذا نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا، فأتينا أنئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحننا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا».

فقال ابن ملجم: «أنا أكفيكم علي بن أبي طالب». وكان من أهل مصر، وقال البرك بن عبد الله: «أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان». وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص».

فتعاهدوا وتواتقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه؛ فأخذوا أسيافهم فسموها، واتحدوا لسبعين عشرة تخلو من رمضان أن يثبت كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه عليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب.

فأمنت ترى أن قتل هؤلاء الزعماء الثلاثة «علي ومعاوية وابن العاص» كان أمراً مقرراً محتوماً. وأن القدر وحده هو الذي حال دون هذه الخاتمة، وأنقذت تصارييفه العجيبة «معاوية وابن العاص» ولم يمت من بين هؤلاء إلا «ابن أبي طالب» رضي الله عنه.^٧

فقد رروا أن «البرك بن عبد الله» قعد لمعاوية في الليلة التي ضرب فيها علي، فلما خرج معاوية ليصلـي (الغداة) شد عليه بسيـفه فوقع في إـليـته، فأخذـ، فقالـ: «إن عـنـدي خـبرـاً أـسـرـكـ بـهـ، فـإـنـ أـخـبـرـتـ فـنـافـعـيـ ذـكـ عـنـكـ؟ـ» قالـ: «نعمـ» قالـ: «إنـ أـخـاـ ليـ قـتـلـ عـلـيـاـ فيـ مـثـلـ هـذـهـ الـلـيـلـةـ»ـ.ـ قالـ: «ـفـلـعـلـهـ لـمـ يـقـدـرـ عـلـىـ ذـكـ؟ـ»ـ قالـ: «ـبـلـ،ـ إـنـ عـلـيـاـ يـخـرـجـ لـيـسـ مـعـهـ مـنـ يـحـرـسـهـ»ـ.ـ فأـمـرـ بـهـ مـعـاوـيـةـ فـقـتـلـ.ـ وـبـعـثـ مـعـاوـيـةـ إـلـىـ طـبـيـبـهـ؛ـ فـلـمـ نـظـرـ إـلـيـهـ قـالـ:ـ «ـاـخـتـ إـحـدـيـ خـصـلـتـيـ:ـ إـمـاـ أـنـ أـحـمـيـ حـدـيدـةـ فـأـضـعـهـ مـوـضـعـ السـيـفـ،ـ وـإـمـاـ أـنـ أـسـقـيـكـ شـرـبـةـ تـقـطـعـ مـنـكـ الـوـلـدـ وـتـبـرـأـ مـنـهـ؛ـ فـإـنـ ضـرـبـتـكـ مـسـمـوـةـ»ـ.ـ فـقـالـ مـعـاوـيـةـ:ـ «ـأـمـاـ النـارـ فـلـاـ صـبـرـ لـيـ عـلـيـهـ،ـ وـأـمـاـ اـنـقـطـاعـ الـوـلـدـ إـنـ فـيـ «ـيـزـيـدـ وـعـبـدـ اللهـ»ـ مـاـ تـقـرـ بـهـ عـيـنـيـ»ـ.ـ فـسـقـاهـ تـلـكـ الشـرـبـةـ فـبـرـأـ لـمـ يـولـدـ لـهـ بـعـدـهـ.^٨

وكان ذلك كل ما لقيه معاوية من الجزاء على هذه الفتنة التي سعر نارها وأذكى أوارها.

أما «عمرو بن العاص» فقد جلس له «عمرو بن بكر» تلك الليلة، ولكن «ابن العاص» لم يخرج تلك الليلة، وكان اشتكتى بطنـهـ، فأـمـرـ «ـخـارـجـةـ بـنـ حـذـافـةـ»ـ —ـ وـكـانـ

صاحب شرطته — فخرج ليصلِّي فقتله «عمرو بن بكر» فأخذه الناس فانطلقا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة، فقال: «من هذا؟» قالوا: «عمرو» قال: «فمن قتلت!» قالوا: «خارجية بن حداقة» قال: «أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك!»
قال عمرو: «أردتني وأراد الله خارجة». فقدمه عمرو فقتله؟

فليتها إذ فدت عمرًا بخارجية فدت عليًّا بما شاءت من البشر

ولكن:

تقفون والفالك المسخر دائِب وتقدرون فتضحك الأقدار

هوامش

(١) يعني على بن أبي طالب، وقبل هذا البيت يقول أبو العلاء:

لقد فقد الخير بين الأنا
أعن بجميل إذا ما حضر
وإن جاءك الموت فافرح به
م والشر في كل وجه يعن
ت، وعد بالسكون إذا لم تعن
لخلص من عالم قد لعن

(٢) رابع الخلفاء الراشدين، مكث في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر، وقتل سنة ٤٠ هـ، كنيته أبو الحسن واسم أبيه أبو طالب.
ولي (علي) الخلافة بعد مقتل عثمان بعد أن بايعه أهل الحجاز وكاد أن يستتب له الأمر لولا الفتنة التي أضرم نارها معاوية متخدًا من مقتل عثمان ذريعة لتحقيق أمره في الخلافة والوقوف في وجه علي.

صفته

قالوا: «هو رجل آدم، شديد الأدمة، ثقيل العينين عظيمهما، أصلع، ذو بطن وهو إلى القصر أقرب».

(٣) يعني عليًّا.

(٤) قالوا: فأجابه هاشم:

وما أنت وابن عفان، إنما قتله أصحاب محمد وأبناء أصحابه حين أحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب وهم أهل الدين وأولى بالنظر في أمور الناس منك ومن أصحابك، وما أظن أمر هذه الأمة وأمر هذا الدين أهمل طرفة عين!

قال له: «أجل والله لا أكذب فإن الكذب يضر لا ينفع».

قال: «فإن أهل هذا الأمر أعلم به، فخله وأهل العلم به».

قال: «ما أظنك والله إلا نصحت لي!»

قال: «وأما قولك: إن صاحبنا لا يصلي، فهو أول من صلى وأفقه خلق الله في دين الله، وأولي بالرسول! وأما كل من ترى معي فكلهم قارئ لكتاب الله لا ينام الليل تهجدًا، فلا يغويتك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون».

قال الفتى: «إني أظنك امراً صالحًا، فخبرني هل تجد لي من توبة؟»

قال: «نعم يا عبد الله، تب إلى الله يتوب عليك، فإنه قبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات ويحب التوابين ويحب المتطهرين!»

قال: «فكر والله الفتى راجعاً».

قال له رجل من أهل الشام: «خدعك العراقي! خدعك العراقي!»

قال: «لا، ولكن نصح لي!»

ألا ترى إلى هذا الصنف من الناس يستميله رأي فيأخذ به، ولا يحجم عن بذل آخر قطرة من دمه في سبيل نصرته وتأييده، فإذا سمع رأياً يناقضه عدل عن رأيه الأول.

بربك كم يكون تأثير مثل معاوية وابن العاص على مثل هذه الفتنة من الناس، وأحب أن أنبه القارئ إلى ملاحظة على قول هشام هذا، فهو يؤيد في كلمته — أو هو على الأقل — لا يحاول نفي تهمة قتل عثمان عن علي، تلك التهمة التي يبني عليها خصومهم كل دعاوام الطويلة.

(٥) أذهب دمه هدراً.

(٦) ارجع إلى (ج ٦ ص ٣) من تاريخ الطبرى.

(٧) قالوا: ولا انتهى إلى عائشة قتل علي — رضي الله عنه — قالت:

فألقت عصاها، واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

(٨) قالوا: «وأمر معاوية عندئذ بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه

إذا سجد..»

مصرع الوليد الثاني

ويا دهر لحاك الله ما هنأت فرحانك

أبو العلاء

«ويقال إنه لما أححيط به دخل القصر وأغلق بابه، وقال:

دعوا لي «هندًا» و«الرياب» و«فترتى»
ومسمعة، حسبي بذلك مالا
خذوا ملکكم، لا ثبت الله ملکكم
فليس يساوي — بعد ذاك — عقلا
ولا تحسدوني أن أموت هزالا
وخلوا سبيلي (قبل غير وما جرى^١)

فألب عن تلك المنزلة أي ألب، ورؤي رأسه في فم كلب كذلك نقل بعض
الرواية، والله القائم بجزاء الغواة.

رسالة الغفران

(١) إمامية تاريخية

ما ذكرت مصروع الوليد،^٢ إلا ذكرت معه مصرع الدولة الأموية الوشيك، وذكرت كيف تنجز الثورات الداخلية ما عجزت عنه الثورات الخارجية، وكيف تقضي الحروب الأهلية على دولة قوية لها ماضٌ مجيد في الفتوحات والانتصارات الباهرة، بعد أن تمكنت من البطش بأقوى التأثيرين وأشدّهم مراساً وأصلبهم عوداً.

ولكن المطامع والأحقاد التي شبت في جوانح أفراد هذه الأسرة – في عهد الوليد وبعده – عرفت كيف تنهك هذه الدولة وتقدوها إلى الدمار، ثم تسلمها لقمة سائفة – بعد قليل من الزمن – إلى العباسين المتطلين إلى الملك.

ولقد تنبأ العباس «ابن عم الوليد» بهذه العاقبة، ودل على أصالة رأيه وبعد نظره، إذ عنف أخيه يزيد أشد تعنيف، وحذر من إثارة الفتنة حين رأه متطلعاً إلى الخلافة راغباً في الانقضاض على الوليد، وأغلاظ له القول، ثم تمثل قائلاً:

إني أعيذكم بالله من فتن
إن البرية قد ملت سياستكم
لا تلهمن ذئاب الناس أنفسكم
لا تبقرن بآيديكم بطونكم

مثل الجبال، تسامي، ثم تندفع
فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
إن الذئاب ما أحэм رتعوا
فثم لا حسراً تغبني ولا جزع!

ولقد صحت نبوءته، وتحقق صدق ما تمثل به من الشعر، ووقع كل ما قال.

لقد أساء يزيد بن عبد الملك إلى ابنه الوليد عن غير ما قصد أليماً إساءة، إذ أسنده الأمر – من بعده – إلى أخيه هشام، ثم أدرك خطأه وندم أشد الندم ولكن بعد فوات الفرصة. فقد استخلف أخيه هشاماً حين بلغ «الوليد» إحدى عشرة سنة، فلما بلغ خمس عشرة، ندم على تسرعه.

قالوا: وكان إذا نظر إلى ابنه الوليد قال: «الله بيبني وبين من جعل هشاماً بيبني وبينك..».

وفي هذه الجملة كل معاني الحسراة والندم!
وبعد أن مات «يزيد بن عبد الملك» بدأ هشام بتعظيم الوليد، ثم داخله الطمع فأراد استخلاف ابنه بعده، فلما رأى الوليد حجر عشرة في طريق مطامعه أراده على ذلك، فأبى، فطلب إليه أن يستخلف ابنه بعد خلافته، فأبى الوليد ذلك أيضاً.

هنا حقد هشام على ابن أخيه، وتنمر للوليد، وأخذ يملأ الدنيا عليه تشنيعاً ثم أقصاه عنه، واضطهد أصدقاءه والقربين إليه، ونكل ببعضهم تنكيلًا،^٢ ومات هشام وفي ؤواه حسرة من الوليد.^٤

فلما آل الأمر للوليد كان أول همه الانتقام والتمثيل بأعدائه حتى كال لهشام الم صاعاً،^٥ وانتقم لنفسه من أبناء أخيه وأهله وأنصاره انتقاماً أحفظ عليه أسرته، وما زال يمعن في التنكيل بأعدائه، وهو يمعنون في التشهير به ونشر الدعاية ضده وعلى رأسهم «يزيد بن الوليد» الذي اتخد — من ظهوره بالنسك أمام الناس ومحبتهم إياه — وسيلة لتغفيضهم في الوليد، فما ترك فرصة للتتشنيع عليه إلا انتهزها، ولا عرض ذكره إلا لقبه بالفالوس.

قالوا: وكان يظهر النسك، ويتواضع ويقول: «ما يسعنا الرضا بالوليد!» حتى أدرك إربته، وألب الناس ضده، رافعاً أمامهم علم الثورة التي انتهت بالفتكت بالوليد، وانتقال الأمر إلى يزيد.

وهكذا تضافت الظروف على إهلاك الوليد ونال أعداؤه منه ما يريدون، وقد يمكن تلخيصها جميعاً فيما يلي:

- (١) تهتك الوليد واستهتاره، وميله الشديد إلى مراوغة الناس ومجاهرته بعصياته وآثمه، واحتقار ما تواضعوا على احترامه.
- (٢) استغلال خصومه هذه الناحية منه وإذاعة سوأته مكبرة مبالغًا فيها، نافخين في أبواق الفتنة، مستثريين حمية الناس لتفيرهم منه، وكان ألد خصومه وأشدهم تشهيراً به اثنان: هشام قبل خلافة الوليد، ويزيد بعدها.
- (٣) ثقة الوليد بنفسه وشدة اعتداته بقوته، إلى حد أغفل معه كل احتياط لدرء الفتنة والقضاء على دسائس خصومه وهي في مهدها، قبل أن تستقبل وتصل إلى هذا الحد.

(٢) الثورة: شجاعة الوليد

قالوا: «كان الوليد شديد البطش، طويل أصابع الرجلين، وكان يوتده سكة حديد فيها خط، ويشد الخط في رجله ثم يثبت على الدابة فينتزع السكة ويركب، ما يمس الدابة بيد».«

قالوا: «ولما اندلعت نيران الثورة التي شبها «يزيد بن الوليد» علم وبلغه ذلك، أمر أصحابه فأخرجوا سريراً، وجلس عليه، وقال: أعلى توثب الرجال، وأنا أثب على الأسد، وأتخصر الأفاعي؟»

وهذا قليل من كثير مما يحدثنا به التاريخ عن شجاعته ورباطة جأشه، ولكن ماذا تجدية شجاعته في مثل هذا المأزق الحرج؟ وماذا تغنيه قوته ورباطة جأشه أمام هذه الجموع الراخمة المتالية عليه؟

ماذا يفعل وقد خذله أنصاره، وتفرق عن نصرته رجاله، وتم الأمر – أو كاد – لخصمه «يزيد بن الوليد» الذي عرف كيف يشهر به، ويذيع مخازيه وآثامه مكروبة مجسمة في الآفاق؛ حتى بلغ إربته، وبايده أكثر الناس؟ ليس أمامه غير الهزيمة، ولكنه لم يشأ أن يتوجّلها، وأبى إلا الثبات لعل فيه فرجاً، ولم تخنه شجاعته في هذا الظرف العصيب فخرج محارباً مستبساً في دفاعه. وقد ظاهر بين درعين – كما يقول المؤرخون – وأنّه بفرسيه «السدي» و«الزائد» فقاتل أعداءه قتالاً شديداً.

(٣) انخذال الوليد

ولكن رجلاً من أعداء الوليد ناداهم: «اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط، ارموه بالحجارة!» فلم يك يسمع ذلك، حتى شعر بالخيبة، وأدرك أن أمره وشيك الزوال، وعلم أن ليس في استطاعته أن يصد هذه الجموع المتالية الملتئبة حماساً، وأن الدفاع في هذا الوطن معناه الدمار.

فلجاً مضطراً إلى الانسحاب، فدخل القصر وأغلق الباب، ولكن أعداءه أحاطوا بالقصر.

(٤) محاسبة الوليد

قالوا: فلما رأى الوليد هذه الجموع الراخمة دنا من الباب فقال: «أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه؟» فقال له أحدهم: «كلمني..»

فقال له: «من أنت؟»

قال: «أنا يزيد بن عبسة السكسي!»

قال: «يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمانكم؟»

قال: «إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، ولكن ننقم عليك في انتهاءك ما حرم الله وشرب الخمر، وإتيان أولاد أمهات أبيك واستخفافك بأمر الله!»

قال: «حسبك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت وإن فيما أحل لي لسعة!»

ثم قال: «لعمري لقد أكثرتم وأغرقتم! أما والله لا يرتفق فتقكم، ولا يلم شعثكم، ولا تجمع كلمتكم!»

(٥) الساعة الأخيرة

وأمسى أبو العباس^٦ أحلام نائم
عليه ولا جري النحوس الأشائم
وجوه المنايا حاسرات العمائم!
وردن كلوجاً، باديات الشكائم!

تقسم كسرى رهطه بسيوفهم
وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة
مقيماً على اللذات حتى بدت له
وقد ترد الأيام غرراً، وربما

بشار بن برد

وكذلك حان مصرع الوليد، ودققت ساعته الأخيرة، مؤذنة بذهابه من هذا العالم إلى العالم الثاني.

وهنا يحدثنا الرواية؛ فيقول أحدهم: إن الوليد رجع إلى الدار، فجلس وأخذ مصحفاً وقال: «يوم كيوم عثمان». ونشر المصحف يقرأ.

وفي هذا المنظر ما فيه من الروعة، إذا تمثلنا المنظر الآخر المقابل له، وأجلنا الفكر فيما بين الموقفين من التباين الشديد.

فهو هنا يتعرى بقراءة المصحف وهو يشعر بدنه أجهله وقرب ساعته الأخيرة.
وهو هناك يقرأ المصحف شامحاً مستكبراً تائهاً - وأمره في تمامه - فيرى فيه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ﴾.

فيشتعل غيطاً وحقداً، وتأخذه العزة بالإثم، فيمزق المصحف ويلقى به إلى الأرض
ويخرقه بالنشاب، ثم ينسد غاضباً:

أتوعد كل جبار عنيد
فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت رب يوم حشر
فقل يا رب، مزقني الوليد!

وشتان ما بين المنظرین !!

على أن الوليد لم يلبث أن عاوده شيء من صلفه وشجاعته، فلم يرض لنفسه استخذاء
الدليل أمام الموت.

قال أبو العلاء يحدثنا — في رسالة الغفران — عن الوليد في هذه الساعة:

ويقال إنه لما أححيط به دخل القصر وأغلق بابه، وقال:

دعوا لي «هند» والرباب «فرتني»
ومسمعة، حسبي بذلك مالا
خذوا ملككم — لا ثبت الله ملككم —
فليس يساوي بعد ذاك عقلا
ولا تحسدوني أن أموت هزا
وخلوا سبيلي (قبل غير وما جرى)

فألب عن تلك المنزلة أي ألب، ورؤي رأسه في فم كلب!

(٦) كيف قتل: روایة شاهد عيان

قال من شهد هذا المنظر المروع: «نظرت إلى شاب طويل على فرس؛ فدنا من حائط
القصر فعلاه ثم صار إلى داخل القصر! فدخلت القصر، فإذا الوليد قائم في قميص
قصب، وسراوييل موشي، ومعه سيف في غمد، والناس يشتمونه».«
وقال شاهد آخر: وكان أول من علا الحائط هو عنبرة السكسكي؛ فنزل إليه
وسيف الوليد إلى جنبه، فقال له: «نح سيفك».«
فأجابه الوليد: «لو أردت السيف ل كانت لي ولك حالة غير هذه». فأخذ الوليد، فنزل
من الحائط عشرة.

قال بعض الرواة: ومضى الوليد ي يريد الباب؛ فضربه أحدهم على رأسه، وتعاونه الناس بأسيافهم، فقتل.
وطرح أحدهم نفسه عليه يحتز رأسه.^٧

(٧) كيف مثروا به؟

قالوا: وأقبل آخر فسلح من جلد الوليد قدر الكف. ثم انتهب الناس عسكره وخزائنه. وقد أمر «يزيد» بتنصيب الرأس؛ فقال له بعض خواصه (واسمها ابن فروة): «إنما تنصب رعوس الخوارج، وهذا ابن عمك وخليفة! ولا آمن — إن نصبه — أن ترق له قلوب الناس فيغضب له أهل بيته!»
فقال: «والله لأنصبني!»

ونصبه على رمح، ثم قال: «انطلق، فطف به مدينة دمشق، وأدخله دار أبيه». ففعل، وثم صاح الناس وأهل الدار وانزعجوا من ذلك أشد الانزعاج.
وكذلك أسدل الستار على حياة هذا المستهتر الجبار!

(٨) خلاعة الوليد واستهتاره

قلنا في الفصل السابق إن أول الأسباب التي تصافرت على إهلاك الوليد خلاعته وتفانيه في لهوه وفجوره، ووعدنا في ختامه بالإسلام بطائفة من مخازيه وأثامه، وليس يسعنا أن نبر بهذا الوعد، دون أن نضطر إلى ذكر كثير من الأشياء التي ينبو عنها الذوق، وتأباهها الآداب الكريمة، لهذا تجاوزنا عن كثير من فحشه، وألمنا بما يمكننا الإسلام به من مخزيات هي — على شناعتها — أقل ما اقترفه من الدنيا، وهي — على إمعانها في الفجر — أيسر من غيرها وأخف على النفس من سواها.

(١-٨) أبو الوليد

وإذا صدق القائل:

هذا العصا من هذه العصية لا تلد الحياة إلا حية!

فما أصدق هذا القول، وما أشد انطباقه على الوليد وأبيه معاً، فقد حدثنا المؤرخون عن نزعة أبيه إلى اللهو والقصف، وشغفه بحبابة المغنية واشتهره بذلك، بما فيه من الكفاية، قالوا:

كان يزيد «أبو الوليد» قد حج أيام سليمان أخيه، فاشترى «حبابة» بأربعة آلاف دينار، فقال سليمان: «لقد صممتم أن أحجر على يزيد!»

فلما سمع يزيد ردها فاشترتها رجل من أهل مصر.

فلما أفضلت الخلافة إليه قالت له امرأته «سعدة»: «هل بقي من الدنيا شيء تتنمناه؟» فقال: «نعم، حبابة!» قالوا:

فأرسلت فاشترت لها وصنعتها، وأتت بها يزيد، وأجلستها من وراء الستر.

قالت: «يا أمير المؤمنين، أبقي من الدنيا شيء تتنمناه؟»

قال: «أعلمتك.»

فرفعت الستر وقالت: «هذه حبابة». وقامت وتركتها عنده فحظيit سعدة عنده وأكرمتها!

وقال يوماً، وقد طرب بغناء حبابة: «دعوني أطير». وأهوى ليطير.

قالت: «يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجة!» فقال: «والله لأطيرن». فقالت: «فعل من تدع الأمة والملك؟» قال لها: «عليك والله». وقبل يدها، فخرج بعض خدمه وهو يقول: «سخنت عينك ما أسفوك!»

قالوا: «وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتتزهان، فرمها بحبة عنبر فاستقبلتها بفيها فدخلت حلقتها، فشرقت بها وماتت، فتركها ثلاثة أيام لا يدفنها؛ حتى نتنى وهو يشمها وينظر إليها ويبكي، فلما دفنت بقي بعدها خمسة عشر يوماً ومات، ودفن إلى جانبها!»

(٢-٨) مؤدب الوليد

قالوا: «وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدبًا للوليد، وكان زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه.»

(٣-٨) ندمان الوليد

قالوا: «ولما ولّي الوليد لم يزدد من الذي كان فيه — من اللهو والركوب للصيد وشرب الخمر ومنادمة الفساق — إلا تماديًّا». وإنّا صدق القائل:

عن المرء لا تسأله، وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

فإن ندمان الوليد وخلانه، كانوا نخبة مختارة من الفساق والمجان والمستهترین
بلغوا في العهر غايتها، ووصلوا في الفجر إلى نهايته.
أليس من ندمانه ومغنيه وأقرب المقربين إليه «ابن عائشة» الذي يجحب بعض
سائليه بقوله: «غنىت أمير المؤمنين صوتًا، فأطربته، فكفر وترك الصلاة وأمر لي بهذا
المال وهذه الكسوة..».

نعم، وهو الذي يحدثنا عنه صاحب ستر الوليد فيقول: «إن ابن عائشة غناه ذات
يوم:

إني رأيت صبيحة النفر	حورًا نفين عزيمة الصبر
مثل الكواكب في مطالعها	بعد العشاء وطفن بالبدر
وخرجت أبغى الأجر محتسباً	فرجعت موفورًا من الوزر

فطرب الوليد وألحد ...» إلى أن يقول: «ثم أكب الوليد على ابن عائشة المغني، ثم لم
يبق عضواً من أعضائه إلا قبله ...» ثم ماذا؟
ثم بقيّة هذا الخبر الذي لا يحتمل المقام روایته، لبذاته وفحشه.

وليس ابن عائشة إلا واحداً من كثيرين حفلت بهم مجالس الوليد ومحانيه، وكان له
معهم ما يخجل القلم من ذكره.

هذا عمر بن أبي ربعة يرجع من أحد مجالس الوليد، فيسأل: «ما الذي كنت
تضحك أمير المؤمنين به؟» فيجيب سائله: «ما زلنا في حديث الزنا حتى رجعنا!»
الحق أن الوليد قد وصل به الاستهتار إلى أبعد الغايات، وطروح به في مهاوي الغواية
حتى ترد في ظلماتها السحيقة.

(٤-٨) الوليد يخطب الناس شعرًا وهو سكران

قالوا: «خرج الوليد — وكان مع أصحابه على شراب — فقيل له: «إن اليوم الجمعة!» فقال: «والله لأخطبهم اليوم بشعر». فصعد المنبر فخطب. فقال:

أحمده في يسرا والجهد
وهو الذي ليس له قرين
أن لا إله غيره إلها
قد خضعت لملكه الملوك
فليس من خالقه بمهد
القادر الفرد الشديد البطش
وبالكتاب واعظاً بشيرا
وقد جعلنا قبل مشركينا
الحمد لله ولـي الحمد
وهو الذي في الكرب أستعين
أشهد في الدنيا وما سواها
ما أن له في خلقه شريك
أشهد أن الدين دين أـحمد
 وأنه رسول رب العرش
أرسله في خلقه نذيرا
ليظهر الله بذلك الديننا

* * *

أو يعصه — أو الرسول — خابا
قد بقيا لما مضى الرسول
حي صحيح لا يزال فيكم
عن قصده أو نهجه، تضلوا
إن الطريق فاعلمـن واضح
يوم الحساب سائراً إلى الهدى
أرى جمـاع البر فيه قد دخل
من يطع الله فقد أصـابـا
ثم القرآن والهدى السـبيل
كـأنـه لـما بـقـي لـديـكـم
إـنـكـمـ مـنـ بـعـدـ إـنـ تـزـلـوا
لـاـ تـتـرـكـنـ نـصـحـيـ فـإـنـيـ نـاصـحـ
مـنـ يـتـقـ اللـهـ بـحـدـ غـبـ التـقـيـ
إـنـ التـقـيـ أـفـضـلـ شـيـءـ فـيـ الـعـلـمـ

إـلـىـ آخـرـ هـذـهـ الخـطـبـةـ!

ومن نوادره الطريقة ما حدث له مع الوليد البندار الذي يحدثنا فيقول:^٨
حجـتـ معـ الـولـيدـ بنـ يـزـيدـ، فـقـلتـ لـهـ مـاـ أـرـادـ أـنـ يـخـطبـ النـاسـ: «ـأـيـهاـ الـأـمـيرـ، إـنـ
الـيـومـ يـوـمـ يـشـهـدـ النـاسـ مـنـ الـآـفـاقـ وـأـرـيدـ أـنـ يـشـرـفـنـيـ بـشـيـءـ».
قال: «ـوـمـاـ هـوـ؟»

قلـتـ: «ـإـذـاـ عـلـوتـ المـنـبـرـ دـعـوتـ بـيـ فـيـتـحدـثـ النـاسـ بـذـلـكـ، وـبـأـنـكـ أـسـرـتـ إـلـيـ شـيـئـاـ!»
فـقـالـ: «ـأـفـعـلـ!» فـلـمـاـ جـلـسـ عـلـىـ المـنـبـرـ قـالـ:

«الوليد البندر!» فقمت إليه، فقال: «ادن مني». فدنوت، فأخذ بأذني ثم قال: «البندر ولد زنا، والوليد ولد زنا، وكل من ترى من حولنا ولد زنا، أفهمت؟» قلت: «نعم» قال: «انزل الآن». فنزلت!

(٥-٨) ميله إلى مذهب ماني^١

٩ وقد عزا إليه بعض المؤرخين ميله إلى الأخذ بالمذهب المانوي وروى «ابن القارح» أن الوليد أحضر ذات يوم صورة رجل فسجد له وقبله وقال لبعض الناس: «اسجد له يا عاج..» فقال: «ومن هذا؟»

قال: «هذا «ماني» شأنه كان عظيمًا، اضمحل أمره لطول المدة.»
قال: «لا يجوز السجود إلا لله.» فقال: «قم عنا.»

قال ابن القارح: وكان يشرب على سطح، وبين يديه باطية كبيرة بلور، وفيها أقداح،
قال لندمائه: «أين القمر الليلة؟» فقال بعضهم: «في الباطية.»

قال: «صدقت، أتيت على ما في نفسي، والله لأشربن الهافتحة.»^{١٠}
وكان بموضع حول دمشق يقال له «البحر» فقال:

«تلعب بالنبوة هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتاب»

«قتل به، ورأوا رأسه في الباطية التي أراد أن يهفتح بها.»

(٦-٨) كلمة خاتمية

ونذكر — قبل أن نختتم هذا الفصل — كلمة أبي العلاء التي أوجز بها رأيه في الوليد، وهي قوله:^{١١}

وأما الوليد بن يزيد، فكان عقله عقل وليد، وقد بلغ سن الكهل، وقد رويت له
أشعار يلحق به منها العار، كقوله:

«أدنيا مني خليلي» «عبدلا» دون الإزار
«فلقد أيقنت أني» غير مبعوث لنار

واتركا من يطلب الجن
سأروض الناس حتى
يركبوا دين الحمار

فالعجب لزمان صير مثله إماماً!
ولعل مثله — ممن ملك — يعتقد مثله أو قريباً، ولكن يساير ويحافظ تثريباً.

ومما يروى له قوله:

أجر بردي وأسمع الغزل
وقهوة ترك الفتى ثملا
ولا أبالي من لام أو عذلا
يأمل حور الجنان من عقلا
فجازها بذلها كمن وصلا»
«أنا الإمام الوليد مفتخرًا
ما العيش إلا سماع محسنة
أسحب ذيلي إلى منازلها
لا أرجي الحور في الجنان وهل
إذا حبتك الوصال غانية

هوامش

- (١) مثل يضرب للسرعة، ومعنى الأبيات: اتركوا إلى هذه الأشياء ثم خذوا الملك مني بعد ذلك، فإني أتركه لكم في الحال مكتفياً بها، ولا يهمكم من أمرى شيء بعد.
- (٢) أو الوليد الفاسق كما يلقبونه.
- (٣) وفي ذلك يقول الوليد كلاماً كثيراً نختار من قوله: «من يثق بالناس؟ ومن يصنع المعرف؟ هذا الأحوال المشئوم (هشام) قدمه أبي على أهل بيته، فصيরه ولـي عهده، ثم يصنع بي ما ترون؟ لا يعلم أن لي في أحد هوى إلا عبث به!»
وقوله من كتاب بعث به إلى هشام:

فلو كنت ذا إرب لهدمت ما تبني
فوويل لهم — إن مت — من شر ما تجني
«ألا ليتنا» والليت إذ ذاك لا تغبني
جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
«رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي
تشير على الباقيين مجني ضغينة
كأنني بهم «والليت» أفضل قولهم:
كفرت يدأ من منعم لو شكرتها

(٤) وليس أدل على ذلك من قوله لبعض خواصه ذات يوم: «أتري الناس يرضون بالوليد، إن حدث بي حدث؟»

قال: «بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين.»

قال «ويحك! لا بد من الموت أفتري الناس يرضون بالوليد؟»

قال: «يا أمير المؤمنين، إن له في عنان الناس بيعة.»

فقال هشام:

«لئن رضي الناس بالوليد، ما أظن الحديث الذي رواه الناس: «إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار». إلا كاذبًا.»

ولم ينس حقده على الوليد حتى في ساعته الأخيرة في وقت احتضاره حين صار في حال لا ترجى الحياة لملته، فقد أفاق — كما يقولون — إفاقة، فطلب شيئاً فمنعوه، فقال: «أرانا كنا خزانًا للوليد». ومات.

(٥) وفي ذلك يقول:

مكياله الأوفر قد أترعا فما ظلمناه به أصبعا أحله الفرقان لي أجمعوا	ليت هشاماً عاش حتى يرى كلناه بالصاع الذي كاله وما أتيينا ذاك عن بدعة
---	--

(٦) كنية الوليد.

(٧) قالوا: «وكان يزيد قد جعل في رأس الوليد مائة ألف.»

(٨) مجلس من مجالس الوليد: حدث بعض الموالين للوليد فقال:

كنت عند «هشام» وعنه الزهري فذكر الوليد، فتنقصاه وعاباه عيباً شديداً ولم يعرض في شيء مما كان فيه فاستأذن الوليد فأذن له — وأنا أعرف الغضب في وجهه — فجلس قليلاً ثم قام.

فلما مات هشام كتب في فحملت إليه فرحب بي وقال: «كيف حالك يا ابن ذكوان؟» وألطف المسألة بي ثم قال: «أنت تذكر يوم الأحول «هشام الخليفة» وعنه الفاسق «الزهري» وهو يعيبني.»

قلت: «أذكر ذلك فلم أعرض في شيء مما كان فيه.»

قال: «صدقت».رأيت الغلام الذي كان على رأس هشام؟»

قلت: «نعم.»

قال: «فإنه نمى إلى ما قال، وایم الله لو بقى الفاسق لقتله.»

قلت: «قد عرفت الغضب في وجهك حين دخلت!»

ثم قال: «يا ابن ذكوان، ذهب الأحول بعمرى!»

فقلت: «بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين، ويتمتع الأمة ببقائك.» فدعا بالعشاء فتعشينا وجاءت المغرب فصلينا وتحديثنا حتى جاءت العشاء الآخرة فصلينا، وجلس، قال: «اسقني». فجاءوا بإماء مغطى وجاء ثلاثة جوار فصفون بين يديه وبينه، ثم شرب وذهبن فتحديثنا.

واستسقى فصنعن مثل ما صنعن أولاً.

فما زال على ذلك يتحدث ويستسقى ويصنعن مثل ذلك، حتى طلع الفجر فأحصيت له سبعين قدحاً.

نقول: ولعل هذا من أعف مجالس الوليد، ونحب أن لا ينسى القارئ أن راوي هذا الخبر ليس من أعداء الوليد ولا من المتحاملين عليه.

على أن للوليد أخباراً أخرى لا سبيل لنا إلى ذكرها في هذا المقام لشناعتها وفحشها.

(٩) ماني هو زعيم المذهب المانوي ومؤسسه.

ظهر في أيام سابور بن أردشير، وقتلته بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧م، وهو يزعم أن العالم مصنوع من أصلين قديمين، هما: النور والظلمة، وأنهما أزليان سرمديان، وأنه ما من شيء إلا وهو من أصل قديم، وأن الخير كله من النور، والشر كله من الظلمة، وقد أشار المتنبي إلى ذلك في قوله يمدح كافور الإخشیدي:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن «المانوية» تكذب

وقاك ردي الأعداء تسرى إليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

(١٠) شرب الخمر سبعة أسابيع متتالية.

(١١) رسالة الغفران «ج ٢ ص ٤٤».

مشرع مروان الجعدي

أو «حمار الجزيرة»^١

ولو علم بنو مروان أنهم إنما يوقدون على رصف يلقونه في أجوافهم، ما فعلوا.
الوليد الثاني

(١) كيف صرع

وطعنه رجل من أهل البصرة، وهو لا يعرفه فصرعه، فصاح صائح: «صرع
أمير المؤمنين!» وابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة فاحتز رأسه!
المؤرخون

(١-١) طلائع الثورة

فراح عامين، إلا أنها كبرت لما يطرن، وقد سربلن بالزغب

فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيمما لهب

نصر بن سيار

ولكن الفراخ كبرت وطارت ولم يحتل لها فصحت نبوءة «نصر بن سيار» وألهبت نيران حرب شعواء، ذكاً أوارها واندلع لهيبها، فكان وقودها مروان الجعدي والدولة الأموية معاً، ولم تخمد جذوة هذه النار المستعرة، إلا بعد أن أتت على الأخضر واليابس وغيرت وجه التاريخ، وأحدثت انقلاباً هائلاً في كل مراافق الأمة العربية وشئونها تقريراً.

لقد رأى «نصر بن سيار» خطر المنافسين يتعاظم يوماً بعد يوم، وشاهد أتباعهم في ازدياد، ودعوتهم في ذيوع وانتشار، فلم يدخل وسعاً في تحذير الأمويين من أعدائهم واحتثاث هممهم ليقضوا على الثورة – وهي في مهدها – وكان يرى نجاح دعوة «أبي مسلم الخراساني» واتساع نطاقها، فبيعت التحذير بعد التحذير والإذنار تلو الإنذار، حتى بح صوته وذهبت صيحاته كلها أدراج الرياح!

ولعل أحداً لا يجهل أبياته الصادقة التي ختم بها إحدى كتبه التي بعث بها إلى مروان الجعدي، حين رأى انتشار الدعوة لبني العباس وذيوعها في خراسان سنة ١٢٩، وهي قوله:

فأُحاج بأن يكون لها ضرام وإن الحرب مبدؤها الكلام أليقاظ أمية، أم نيام!	أرى خلل الرماد وميض جمر فإن النيران بالعودين تذكى فقللت من التعجب «ليت شعري
--	---

ولكن بني أمية كانوا نياماً عن عدائهم، منهمكين في إشباع شهواتهم الحقيرة، مشغلين بالانتقام بعضهم من بعض، لا هم إلا التبغض وإثارة الفتنة الداخلية بينهم، حتى جاءهم أمر الله فأمحى ملتهم من المشرق، وقضى عليهم قضاء مبرماً في سنة ١٣٢هـ. وصدق قول القائل: «ولكل أهل بيت مشائيم يغير الله النعمة بهم ولن ينتقل سلطان قوم قط إلا في تشتيت كلمتهم!» كما صح فيهم قول من قال:

«أوتيت ملّكاً، فلم أحسن سياسته كذلك من لا يسوس الملك يخلعه»

كل شيء قاتل حين تلقى أجلك

ليس أدل من هذه الموقعة على الفوضى الضاربة أطناها في جيش الأمويين والتخاذل الشامل وسوء الرأي، فقد تجلت في هذه الموقعة صفات النذالة والإحجام في أكثر الجيش الأموي واضحة جلية، كما تجلى فيها ارتباك مروان وخوره وتوانيه في رسم خطة يسير عليها جيشه قبل أن يلتحم في المعركة، وكان لإحجام قواه ومخالفتهم أوامره أسوأ النتائج وأبعد الأثر في هزيمتهم الشاملة، أما «الوليد بن معاوية بن مروان» صهر الجعدي، فقد ذكرتنا حماقته وتهوره بظهوره بشهر عثمان — رضي الله عنه — وما أبداه من خرق في مخالفة رأيه.

لقد أمر «الجعدي» جيشه ألا يبدأ القتال وقرر رأيه على ذلك. ولكن صهره الأحمق «الوليد بن معاوية» بدأ القتال فحمل على الميمنة فاشتبكت الحرب — على رغم الجعدي — واستعرت فجأة أياً استعار، ونفذ قضاء الله. وهنا يسرع «مروان الجعدي» بعد أن نفذ السهم فيقول لقضاعة: «احملوا!» فيقولون له: «قل لبني عامر فليحملوا».

فيرسل إلى «السكون» أن احملوا فيقولون: «قل لغطفان فليحملوا». فيقول لصاحب الشرطة: «انزل!» فيجيبه: «والله ما كنت لأجعل نفسي غرضاً». فيقول له الخليفة متوعداً: «أما والله لأسوءنك..». فيجيبه صاحب الشرطة هازئاً: «وبدت والله أنك قدرت على ذلك». وثم زاد ارتباك مروان، وتعاظم خياله؛ أمام جيش الخراسانيين فكان — كما يقول المؤرخون — لا يدبر شيئاً إلا كان فيه الخلل والفساد. أراد أن يشجع رجال جيشه وهو يقتلون فأمر بأموال فأخرجت وقال للناس: «اصطبروا وقاتلوا بهذه الأموال لكم».

فانعكست الآية، وتهاافت فئة منهم على ذلك المال فجعلت تصيب منه. فلما قالوا له: «إن الناس قد مالوا عن هذا المال، ولا تأمنهم أن يذهبوا به..»، أراد أن يتدارك هذا الخطأ، فوقع فيما هو شر منه؛ فقد أرسل إلى ابنه «عبد الله» أن يسير في صاحبته إلى مؤخر عسكره فيقتل من أخذ من ذلك المال ويمنعهم! فماذا كانت النتيجة؟

رأى الناس «عبد الله» وقد مال برأيته وأصحابه فحسبوهم مولين؛ فصاحوا «الهزيمة»، فكانت الهزيمة الشاملة! ويمثل هذه التصرفات العجيبة المربيكة الخاطئة اندرح الجيش الأموي وانهزم مروان في موقعة «الزاب» شر هزيمة. قالوا: «قطع الجسر، فكان من غرق يومئذ أكثر من قتل.»

(٣-١) فرار الخليفة

كذبتم أمير المؤمنين لا يفر. قالوا: «وانهزم مروان حتى وصل مدينة الموصل، فناداهم أهل الشام «هذا مروان!» فقالوا: كذبتم أمير المؤمنين لا يفر.

(٤-١) طريق الفرار

ولكن أمير المؤمنين قد فر وأمعن في فراره، فما يكاد يستقر بموضع حتى تداهمه طلائع العدو، فيغادره هارباً إلى موضع آخر. فر إلى «حران» فأقام بها نি�فاً وعشرين يوماً، ومضى منهزاً حتى مر بقنسرين و«عبد الله بن علي» متبع له، ثم هرب مروان إلى «حمص» فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم شخص منها وهو مرعوب منهزم، ومضى حتى مر بدمشق وتركها حتى قدم «فلسطين» وتتابع فراره حتى وصل إلى مصر.

(٥-١) مطاردته في مصر

وجاء كتاب «أبي العباس» يأمر بتوجيهه «صالح بن علي» في طلب «مروان»، فسار صالح بن علي في ذي القعدة حتى نزل بالرملة، وسار «صالح» بجيشه حتى نزل ساحل البحر، وتجهز يريد «مروان» الهارب بالفرماء حتى نزل صالح «بالعريش»، فلما علم مروان بذلك أحرق ما كان حوله من علف وطعام وهرب؛ قالوا:

«ومضى صالح بن علي فنزل النيل، ثم سار حتى نزل الصعيد، وبلغه أن خيلاً لمروان بالساحل يحرقون الأعلاف، فوجه إليهم قواه؛ فأخذدوا رجالاً فقدموا بهم على

«صالح» — وهو بالفسطاط — فعبر مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله، ومضى صالح يتبعه فالتقى — هو وخيل لمروان — على النيل فاقتتلوا، فهزمهم صالح. وهكذا ظل يطارده «صالح» حتى اهتدى إلى مكانه الذي لجأ إليه في كنيسة «بوصير».

(٦-١) خاتمة مروان: كيف صرع

قالوا: فوافوهם في آخر الليل، فهرب الجند، وخرج إليهم «مروان» — في نفر يسير — فأحاطوا به.

قالوا: وطعنهم رجل من أهل البصرة، وهو لا يعرفه فصرعه فصاح صائح: «صرع أمير المؤمنين».

وابتدروه فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه!

وهنا يروي لنا بعض المؤرخين رواية أقرب إلى القصص والخيال — وإن كانت غير مستحبة الواقع — فيقول: إنهم لما أحضروا رأسه قدام صالح بن علي أمر أن ينفض فانقطع لسانه فأخذه هر وأرسله صالح إلى السفاح وقال:

قد فتح الله الله مصر عنوة بكم وأهلك الفاجر الجعدي إذ ظلما
وذاك قوله هر يجرره وكان ربك من ذي الكفر منتقمًا

قالوا ولما وصل الرأس إلى السفاح وهو بالكوفة سجد شكرًا لله!

هوامش

(١) هو مروان بن محمد آخر خلفاءبني أمية، ويلقب بحمار الجزيرة، ويكنى أبا عبد الملك، كانت ولادته — من حين بويع إلى أن قتل — خمس سنين وعشرون شهر وستة عشر يوماً، وكان قتيلاً يوم الأحد لثلاثة بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢، وكانت سنّه يوم قتل اثنين وستين عاماً — في قول بعض المؤرخين — وكانت موقعة «الزاب» المشهورة، قضاء مبرماً عليه وعلى جيشه، فقد اندر مروان فيها يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادي الآخرة سنة ١٣٢. وقد اقترب مصريعه بمصرع الدولة الأموية فكان مصريعاً مزدوجاً.

مشرع مروان ومصرع الدولة الأموية

الأسباب التي أدت إلى ذلك

انتزعت الدولة الأموية الخلافة انتزاعاً بفضل دماء معاوية وانتفاعه باستغلال الظروف، ولم يك يستقر أمرها حتى قامت أمامها عقبات شتى، ونazuها الملك ثوار قادرون، فلم يخلو عهد واحد من عهودها من فتن وقلائل.

كان يناؤنها الشيعة ودعاةبني العباس والخوارج وأتباع عبد الله بن الزبير والمختار وغيرهم. فلم يكن لخلفائها بد من اليقظة التامة والحدر الدائم، وبهاتين الخلتين استطاع الأقوياء منهم أن يخدمو نيراناً مستعرة، ما كانوا ليقدروا على إخمادها لو لا ما امتازوا به من حكمة وسياسة وما عرفوا به من الانصراف لشئون الملك، وافتنانهم في التكيل بأعدائهم.

وكان من الطبيعي أن يتربص المutor بوابته الدوائر، ويتحين الفرص للتنكيل به، ولئن أخفق العلويون والعباسيون في مسعاهما أيام صولة الدولة فقتل من أئمهما أعلام، ألهب فقدهم قلوبهم حقداً علىبني أمية، فما نسوا التأثر لحظة واحدة.¹ وظلوا مثابرين على ذلك حتى أمكنتهم الفرص من عدوهم.

(١) تفرق كلمة الأمويين

ذكرنا في موضوع الوليد الثاني، أنه كان إيزانًا بمصرع الدولة الأموية الوشيك، ينتقم الوليد من ولدي عمه ومن أنصار هشام له، ويؤلب يزيد الناس على الوليد ملهمًا في نفوسهم الحماسة الدينية، رافقًا أمامهم علم الثورة حتى إذا تم الأمر لزيادة الناقص^٢ أظهر مروان بن محمد الخلاف له، فإذا مات يزيد وولي الخلافة أخيه «إبراهيم» لم يتم له الأمر لاضطراب الأحوال^٣ ومناواة الجعدي له، والحروب التي أشعل نارها ضده وانتهت بهزيمة إبراهيم، فإذا بويغ للجعدي ثار عليه أهل حمص، فلا يكاد يخضعهم له حتى يسمع بخلاف أهل الغوطة وحضارتهم دمشق، فلا يكاد يهزهم جيشه حتى يثور أهل فلسطين، فيرسل إليهم من يهزهم، ثم يشق عصا الطاعة «سليمان بن هشام بن عبد الملك» ويجتمع إليه من أهل الشام عدد كبير، فإذا هزم مروان هرب سليمان إلى حمص فألب عليه أهلها، فلا يكاد يهزمه مروان حتى يهرب إلى «تدمر».
هكذا تفرقت كلمةبني أمية، واشتغلوا بقتال أنفسهم عن قتال أعدائهم، فلم يচنع مروان الجعدي إلى نصائح نصر بن سيار وتحذيره من استفحال دعوة العباسيين لأنهم كان مشغولاً بالانتقام من أقاربه وأبناء أسرته.

(٢) توحيد الدعوة ضد الأمويين

كان من أكبر الطامحين إلى الخلافة أسرستان عظيمتان، الأسرة العلوية والأسرة العباسية، وكان كل منهما يدعو إلى نفسه، وقد فطن العباسيون إلى ما في ذلك من تفرق الكلمة، مع حاجتهم إلى الاتحاد ضد عدوهم المشترك، فأعملوا جهودهم في حل هذه العقدة، حتى وفقوا إلى حيلة عجيبة — كما يقول الأستاذ نيكلسون — واهتدوا إلى نداء شامل تنضوي تحته دعوتاً الأسرتين.

فالعلويون أبناء علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم!
وال Abbasيون أبناء العباس بن عبد المطلب بن هاشم.

فال Abbas و عبد المطلب أعمام النبي يلتقيان معه في جدهم هاشم، ففيما الخلاف وتشتت الكلمة؟ لتكن الدعوة إذن باسم جدهم هاشم. وقد نجح العباسيون في هذه الحيلة حتى إذا أدركوا غايتهم، انفردوا بالأمر وحدهم.

(٣) أسباب أخرى

بقي هناك أسباب كثيرة أخرى لا يتسع المقام لتفصيلها فلنجزئ بذكر أهمها، وهي:

- (١) توقف العباسيين إلى أبي مسلم الخراساني الذي قام بأكبر قسط في تنشيط الدعوة إلى العباسيين.
- (٢) ترفع الأمويين عن مخالطة الأجناس الأخرى غير العرب، وإطلاقهم عليهم اسم المولى، مما يبغضهم فيهم وجعلهم ينضمون إلى مناوئيهم ليتخلصوا من دولتهم المبغضة إليهم.
- (٣) تغالي الأحزاب المناصرة لآل البيت والشيعة وما تركه شعر دعاتهم من الأثر الديني في نفوسهم (اقرأ شعر الكميت مثلًا).

فيما إذا أضفنا إلى ذلك ما أسلفنا ذكره من الفتن الداخلية:

- (١) التي أشعل نارها يزيد ضد الوليد.
- (٢) التي أشعل نارها مروان الجعدي ضد يزيد.
- (٣) التي أشعل نارها سليمان بن هشام ضد مروان.

وزدنا على ذلك تخاذل الأمويين في موقعة الزاب وسوء رأي مروان الجعدي وقواده، سهل علينا فهم الأسباب التي أودت بهذه الدولة العظيمة وأزالتها من عالم الوجود.

هوما مش

- (١) لم ينسوا ثأر الحسين بن علي الذي قتل في عهد يزيد، ولا ثأر زيد بن علي — وهو حفيده — وقد قتل سنة ١٢٢هـ في خلافة هشام، فقد خرج زيد بن علي بالكوفة ودعا إلى نفسه وباعيه جمع كثير، وكان واليها يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فجمع العسكر وقاتل زيداً؛ قالوا: « فأصحاب زيداً سهم في جبهته، فأدخل بعض الدور ونزعوا السهم من جبهته ثم مات ». ولم يكتف يوسف بذلك بل بحث عن جثته بعد موته فاستخرجها وصلبها، وبعث رأسه إلى هشام بن عبد الملك، وظللت جثته مصلوبة حتى مات هشام، فلما ولي الوليد أمر بحرق جثته فأحرقت، كذلك لم ينسوا مصرع إبراهيم الإمام الذي قبض عليه مروان الجعدي.

- (٢) سمي كذلك لأنّه نقص أعيطية الجند، وما كاد يتولى الخلافة حتى ثار عليه أهل حمص وأهل فلسطين وغيرهم.
- (٣) مكث في الخلافة نحو سبعين يوماً وكان يسلم عليه بالخلافة تارة وتارة بالإمارة.

مشرع الأميين

ويَا دَهْرَ لَحَّاكَ اللَّهُ مَا هَنَّا فَرَحَانُكَ

أَبُو الْعَلَاءِ

فَنَخْسَهُ وَاحِدٌ بِالسِّيفِ فِي خَاصِرَتِهِ، وَرَكْبُوهُ وَذَبْحُوهُ مِنْ قَفَاهِ.
الْمُؤْرَخُونَ

(١) حلم الأميين

قال الأمين:

رأيت في منامي كأنني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء، عريض الأساس، لم أر مثله في الطول ولا في العرض، وعلى سواري ومنطقتي وسيفي، وكان «طاهر» في أصل ذلك الحائط، فما زال يضربه حتى سقط وسقطت، وطارت قلنسوتي عن رأسي.

(٢) في أواخر أيامه

وهكذا امتلأت نفس «الأمين» بالهواجس – في يقظته وفي نومه – فأصبح لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار، بعد أن حصره «طاهر» وأخذ عليه الأبواب ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما.^١

وليس أصدق – في تمثيل ما وصل إليه من الرعب والفزع – من هذا الحلم. على أن «الأمين» قد حاول أن يرفرف عن نفسه أو يذهب عن حقيقة موقفه، فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً، وأبى القدر المحتوم إلا أن يتضافر كل شيء على إزعاجه وتكدير صفوه!

قال إبراهيم بن المهدى: خرج الأمين – ذات ليلة – ي يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه، فصار إلى قصر له بناحية «الخلد» ثم أرسل إلى فحضرت عنده، فقال: «ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء، وضوءه في الماء على شاطئ «دجلة»، فهل لك في الشرب؟» فقلت: «شأنك».

فشرب رطلاً، وسقاني آخر، ثم غنيته ما كنت أعلم أنه يحبه، فقال لي: «ما تقول فيمن يضرب عليك؟» فقلت: «ما أحوجني إليه!» فدعا بجارية متقدمة عنده اسمها «ضعف». فتطيرت من اسمها ونحن في تلك الحال، فقال لها: «غنى». فغنت شعر الجعدي:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك، ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه، وتطير منه، وقال: «غني لنا غير ذلك». فغنت:

أبكي فراقكم عيني، فأرقها إن التفرق للأحباب بكاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا، ورب الدهر عداء

فقال لها: «لعنك الله! أما تعرفين من الغناء غير هذا؟!»

فقالت: «ما تغنىت إلا ما ظننت أنك تحبه». ثم غنت آخر:

إن المنايا كثيرة الشرك	أما ورب السكون والحرك
دارت نجوم السماء في الفلك	ما اختلف الليل والنهار، وما
قد زال سلطانه إلى ملك	إلا لنقل السلطان عن ملك
ليس بفان، ولا بمشترك	وملك ذي العرش دائم أبداً

قال لها: «قومي، غضب الله عليك ولعنك».

وكان له قدح من بلوغ حسن الصنعة، وكان موضوعاً بين يديه، فتعثرت الجارية به فكسرته، فقال: «ويحك يا إبراهيم! أما ترى ما جاءت هذه الجارية، ثم ما كان من كسر القدر؟ والله ما أظن أمري إلا قد قرب!»

فقلت: «يديم الله ملوك، ويعز سلطانك، ويكتب عدوك». مما استتم الكلام، حتى سمعنا صوتاً: **﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانٌ﴾**.

قال: «يا إبراهيم أما سمعت ما سمعت؟

قلت: «ما سمعت شيئاً». وكنت قد سمعت.

قال: «تسمع حسّاً».

فدنوت من الشط، فلم أر شيئاً، ثم عاودنا الحديث، فعاد الصوت بمثله، فقام من مجلسه مغتنماً إلى مجلسه بالمدينة.

قال: «فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل!»

(٣) يوم الوداع

قالوا: ودعا بابنيه، فضمهمما إليه، وقبلهما وبكي، وقال: «أستودعكم الله عز وجل». ودمعت عيناه فمسح دموعه بكمه.

ثم جاء راكباً إلى الشط، فإذا حراقة «هرثمة» فصعد إليها فأحسن هرثمة لقاءه. وهنا بعثتهم أصحاب «طاهر» في الزواريق، فنقبوا الحراقة فغرقت بهم بعد أن رموهم بالاجر والنشاب، وسقط «الأئمين» إلى الماء فشق ثيابه؛ حتى خرج إلى الشط حيث قبض عليه.

(٤) ذلة العزيز

قال من رأه: لما ذهب من الليل ساعةرأيت الباب قد فتح، وأدخلوا الأمين — وهو عريان — وعليه سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة خلقة.

فتركوه معه، فاسترجعت وبكت فيما بيني وبين نفسي فسألني عن اسمي فعرفته. فقال: «ضمني إليك فإني لأجد وحشة شديدة».

قال: «فضسمته إليّ، وإذا بقلبه يخفق خفاقاً شديداً».

قال: «يا أَحْمَدَ مَا فَعَلَ أَخِي؟

قلت: «هو حي..»

قال: «قبح الله بريدهم، كان يقول قد مات!» (وكانما قال ذلك معتقداً من محاربته)

فقلت: «بل قبح الله وزراءك!»

قال الأمين: «ما تراهم يصنعون بي، أية تكونونني، أم يفون لي بأمانهم؟»

فقلت: «بل يفون لك..»

وجعل يضم الخرقة على كتفه، فنزعـت مبطنة كانت علىّ، وقلت: «ألق هذه عليك».

قال: «دعني، فهذه من الله عز وجل — في هذا الموضع — خير كثير». فبينما نحن

ذلك، إذ دخل علينا رجل، فنظر في وجوهنا فاستثبتها؛ فلما عرفته انصرف، وعلمت أن الأمين مقتول.

(٥) الساعة الرهيبة: عند منتصف الليل

قال: فلما انتصف الليل — أو قارب — فتح الباب، ودخل الدار قوم من العجم معهم السيف مسلولة،^٢ فلما رأها قام قائماً، وجعل يقول: «إنا لِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! ذهبت والله نفسي في سبيل الله، أما من حيلة؟ أما من مغيث؟ أما من أحد من الأبناء؟»

وجاءوا حتى وقفوا على باب البيت الذي نحن فيه، وجعل بعضهم يقول للبعض «تقدّم» ويدفع بعضهم بعضاً وقام الأمين، فأخذ بيده وسادة وجعل يقول: «ويحكم، أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي..».

(٦) دفاع اليائس

فدخل عليه رجل منهم، فضربه بالسيف ضربة، وقعت في مقدم رأسه، وضربه الأمين بالوسادة على وجهه، وأراد أن يأخذ السييف منه. فصاح. «قتلني! قتلني!»

(٧) كيف صرع الأمين

وهنا دخل منهم جماعة، فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته. وركبوه؛ فذبحوه من قفاه. وأخذوا رأسه، ومضوا به إلى طاهر، وتركوا جثته! فلما كان السحر، أخذوا جثته فأدரجوها في جل، وحملوها فنصب طاهر الرأس على برج، وخرج أهل بغداد للنظر، وطاهر يقول: «هذا رأس المخلوع محمد».٤

(٨) الأسباب التي أدت إلى مصرعه

أما الأسباب التي أدت إلى هذه الخاتمة المروعة فهي كثيرة تضيق هذه الإمامة السريعة عن استيعابها غير أننا نذكر منها الأسباب التالية:

- (١) نكث الأمين وغدره بأخيه المأمون.
- (٢) حقد الفضل بن الربيع على المأمون وإلحافه في إغراء الأمين بنقض بيعته.
- (٣) إهمال علي بن عيسى وغروره بنفسه.
- (٤) يقطة طاهر وبعد همته.

أضف إلى ذلك عناية المأمون بتخierre قواه وأصحاب الرأي، وإلى تحمس الفرس وتعصبه للمأمون وما أبداه أنصاره منهم من الاستماتة في نصرته. في حين كان الأمين مخلداً بثقته إلى جماعة من المتكلمين وقصار النظر وأصحاب الخلاعة والمجون.

(١-٨) غدر الأمين

أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف بيمنيه ورد رأي الخليفة قبله.

يا أمير المؤمنين، لم ينصحك من كذبك ولم يغشك من صدقك. لا تجري القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهلك وبيعتك، فإن الغادر مخذول، والناكث مفلول.

عبد الله بن خازم[◦]

ولكن الأمين أبى إلا أن يصم أذنيه عن نصيحة الناصحين، وتملكه الطمع في ملك أخيه، والاستسلام إلى الفضل بن الربيع فبدأ بالغدر بأخيه القاسم فعزله ثم تطلع إلى عزل المؤمنون بعده.

ولقد استشار القواد — واحداً بعد الآخر — فحدروه سوء العاقبة، ولكنه أصر على إنفاذ خطته الخاطئة التي أوردته موارد الحتف، وكانت خير مثل يلقاء الباغي المعتمدي.

(٢-٨) الفضل بن الربيع

وعلم أن الخلافة — إن أفضت إلى المؤمن يوماً وهو حي — لم يبق عليه وكان في ظفره عطبة.

المؤرخون

وهكذا لم يترك الفضل بن الربيع وسيلة من وسائل الإغراء إلا سلكها حتى أقنع الأمين بوجوب الإغارة على ما في يد أخيه من ملك وعزله والدعاء لابنه بدله، كما يقولون.

فقد فكر الفضل بن الربيع — بعد مقدمه من العراق على محمد — أن ينكت بالعقود التي أخذها عليه الرشيد لابنه المؤمن.

قالوا: وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المؤمن يوماً — وهو حي — لم يبق عليه وكان في ظفره به عطبة.

فسعى في إغراء محمد به وحثه على خلعه وصرف ولادة العهد به من بعده إلى ابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه، بل كان عزمه الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم.

قالوا: فلم ينزل الفضل يصغر — في عينيه — شأن المؤمن ويزين له خلعة.

وهكذا بدأ الأمين أخويه بالغدر.

فعزل أخاه القاسم عما ولية من الأعمال وأقدمه إلى بغداد وكتب إلى عماله بالدعاء لبني موسى. فعلم المأمون أن أخيه يدبر في خلعة، فقطع البريد عنه. وانضم قوم إلى المأمون فأكرم وفادتهم وأعد عدته لمناضلة أخيه، وبث العيون والأرصاد وعرف كيف يحصن موقعه ويحتاط للطوارئ.^٦

وقد قال أحد شعراء بغداد قصيدة يندد فيها بالأمين ويدرك فيها تشاغله فيه بلهوه وبطانته وركونه إلى الفضل بن الربيع.

أضاع الخلافة غش الوزير
وفسق الإمام وجهل المشير
فضل وزير وبكر مشير
يريدان ما فيه حتف الأمير

إلى آخر هذه القصيدة التي لا نسمح لأنفسنا بإثباتها في هذا المقام لما فيها من شناعة التعبير.^٧

(٣-٨) علي بن عيسى

أما «علي بن عيسى» فقد عرف كيف يفسر لنا قول صالح بن عبد القدس:

ما يبلغ الأعداء من جاهم ما يبلغ الجاهل من نفسه

فقد كان الظفر له محققاً لو لا استسلامه للغرور والحمق واستهانته بأمر طاهر، ولم يكن يرتتاب أحد في انتصاره، ولكن للقدر تصارييف عجيبة. ألا ترى إلى «أم جعفر» تعتقد أن أمر المأمون قد انتهى وتمثل هزيمته كأنها أمر واقع لا سبييل إلى تلافيه، فتشفق من مصيره، وتوصي «علي بن عيسى» الذي عقد له الأمين على خمسين ألف فارس وراجل من أهل بغداد لمحاربة المأمون فتقول له: «يا علي، إن أمير المؤمنين — وإن كان ولدي — إليه تناهت شفقتني وعليه تكامل حذري، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكرهه وأنني، وإنما ابني ملك نافس أخيه في سلطان».

ثم تقول: «فأعرف لعبد الله حق والده وإخوته ولا تجبهه بالكلام — فإنك لست نظيره — ولا تقترره اقتدار العبيد، ولا توهن به بقيد ولا غل ولا تمنع منه جارية ولا

خادم. ولا تعنف عليه في السير ولا تساوه في المسير. ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفة عليك فلا ترده.»
قالوا: ثم دفعت إليه قيدها من فضة وقالت: «إن صار في يدك فقيده بهذا القيد.»
فقال لها: «سأقبل أمرك وأعمل في ذلك بطاعتكم.»
وهكذا يذهب أصحابنا وهو يحسب أنه قد أسر طاهراً أو كاد، ويبدي من صنوف الغرور ما لا قبل لإنسان بوصفه.

فقد كان يقال له: إن طاهراً مقيم بالري يعرض أصحابه ويرم آله. فيوضح ثم يقول: «وما طاهر؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني أو شرارة من ناري، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب؟»
ثم يلتفت إلى أصحابه قائلاً: «والله ما بينكم وبين أن ينتصف انصاص الشجر من الريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا «عقبة همدان»، فإن السخال لا تقوى على النطاح، والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد، فإن يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظباء السيوف وأعنفة الرماح.»

فإذا وصل «علي بن عيسى» إلى «عقبة همدان» استقبل قافلة قدمت من «خراسان» فسألهم عن الخبر فقالوا له: «إن طاهراً مقيم بالري وقد استعد للقتال واتخذ آلة الحرب وإن المدد يترى عليه من خراسان وما يليها من الكور، وإنه في كل يوم يعظم أمره ويكثر أصحابه وإنهم يرون أنه صاحب جيش خراسان.»

فلا يكاد يسمع منهم ذلك حتى يهزاً بأقوالهم ويبدي لهم كل ما يستطيع أن يبديه من صنوف الاحتقار لطاهر وقوته، وإذا بلغ الري وقال له صاحب مقدمته: «لو كنت أذكيت العيون وبعثت الطلائع، وارتدت موضعاً تعسّر فيه وتتّخذ خندقاً لأصحابك يؤمنون به كان ذلك أبلغ في الرأي وأنس للجند.»

أجابه أصحابنا هازئاً: «ليس مثل طاهر يستعد له بالمكاييد والتحفظ، إن حال طاهر تئول إلى أحد أمرين: إما أن يتحصن بالري فيبهته أهلها فيكونوا مؤنته، أو يخليها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعساكرنا منه وأتاه يحيى بن علي.»

ويقول له صاحب مقدمته: «اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات، ولا تسرح الخيل إلا ومعها كتف من القوم، فإن العساكر لا تساس بالتواني، والحروب لا تدبر بالاغترار، والثقة أن تحترز، ولا تقل: «المحارب لي طاهر» فالشارة الخفية ربما

صارت ضراماً، والثلمة من السيل — ربما اغتر بها وتهون — فصارت بحراً عظيماً. وقد قربت عساكرنا من طاهر، فلو كانرأيه في الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا». فيجيئه صاحبنا على هذه النصيحة الثمينة الملوءة حكمة وتعقلًا وإخلاصاً، بقوله الطائش المغرور: «اسكت فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى، وإنما تحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها، وتستعد إذا كان المนาوئ لها أكفاءها ونظراءها».

وهكذا يمعن صاحبنا في غروره وصلفه واعتداده بنفسه بينما عدوه «طاهر» لا يترك وسيلة من وسائل الحيطة وإحكام الدفاع وترتيب الخطط إلا سلتها، ويأبى القدر إلا أن يعيد لنا حكاية الأربن والسلحفاة الشهيرة حين تراهننا على السباق إلى غاية، وأهمل الأربن اعتماداً على قوته، وجدت السلحفاة لتعوض من ضعفها ففازت عليه وبسبقتها.^٨ وقد كان من نتائج هذه المعركة أن قوي بأس المؤمن وعز مرکزه وتكاثرت عليه وفود المهنئين.

وقد أعلن في ذلك اليوم خلع أخيه ودعا لنفسه بالخلافة في جميع كور خراسان وما يليها.

وأرجف الناس ببغداد وضعف مركز الأمين، وندم أشد الندم على محاربة أخيه وما بدأ به من الغدر.

وعرف قواد الأمين أنه شديد الحاجة إلى اصطناع الرجال فاتفقوا مع الجندي على إحداث الشغب ليصطعنهم بالمال، ولا يكاد الجندي يشتباكون مع جنود القصر حتى يكفهم الأمين ويأمر لهم بما طلبوه من الأرزاق ويصل قوادهم وخواصهم بما يشتهون، فتكون هذه فاتحة الثورات العديدة التي جلبتها هذه الهزيمة الشنعاء.

(٤-٨) شجاعة طاهر

أما شجاعة طاهر فقد كانت تتمثل في كل مواقفه المشرفة التي تجلت في هذه الحروب الطاحنة، فقد كان يشرف على كل شأن — جل أو حقر — من شئون جيشه، ويتعرف كيف يستميل إليه جنوده ويغيري جنود الأعداء بالانضمام إليه. وكان طاهر لا تلوح له فرصة إلا أسرع إلى انتهازها، وقد رأيت ما أبداه من صنوف الحزم في حربه مع «علي بن عيسى» وليس هذه العجالات بموقفيه شيئاً من مواهبه ومميزاته البارزة.

(٥-٨) نكبة بغداد

ولا يسعنا أن نختم هذه الكلمة دون أن نشير إلى نكبة بغداد – التي اقترنـت بمصرع الأمين – فقد لقي أهلها من صنوف العذاب ما لا قبل لإنسان باحتماله، ونحن ندع الوصف إلى شعرائها الذين شهدوا ما حل بها ورأوا بأعينهم ما أصاب أهلها من الروع والفرع.

فمن ذلك قول بعض فتيان بغداد:

فقدت غضارة العيش الأنبيـق
ومن سعة تبدلـنا بـضيق
فأفتـتـ أهلـها بالـمنـجـنيـق
ونـائـحةـ تـنـوحـ عـلـىـ غـرـيقـ
وبـاكـيـةـ لـفـقـدانـ الشـقـيقـ
مـضمـخـةـ الـمـجاـسـدـ بـالـخـلـوقـ
وـوـالـدـهـاـ يـفـرـ إـلـىـ الـحرـيقـ
وـقـدـ فـقـدـ الشـفـيقـ مـنـ الشـفـيقـ
مـتـاعـهـمـ يـبـاعـ بـكـلـ سـوقـ
ـبـلاـ رـأـسـ بـقـارـعـةـ الـطـرـيـقـ
فـمـاـ يـدـرـونـ مـنـ أـيـ الفـرـيقـ
وـقـدـ هـرـبـ الصـدـيقـ بـلـ صـدـيقـ

بكـيـتـ دـمـاـ عـلـىـ بـغـدـادـ لـماـ
تـبـدـلـنـاـ هـمـومـاـ مـنـ سـرـورـ
أـصـابـتـهـاـ مـنـ الـحـسـادـ عـيـنـ
فـقـوـمـ أـحـرـقـواـ بـالـنـارـ قـسـرـاـ
وـصـائـحةـ تـنـادـيـ «ـوـاصـبـاحـ»ـ
وـحـوـرـاءـ الـمـدـامـعـ ذـاتـ دـلـ
تـفـرـ مـنـ الـحـرـيقـ إـلـىـ اـنـتـهـاـبـ
يـنـادـيـنـ:ـ «ـالـشـفـيقـ»ـ ـ وـلـاـ شـفـيقـ ـ
وـقـوـمـ أـخـرـجـواـ مـنـ ظـلـ دـنـيـاـ
وـمـغـتـرـبـ قـرـيـبـ الدـارـ مـلـقـىـ
تـوـسـطـ مـنـ قـتـالـهـمـ جـمـيـعـاـ
فـلـاـ وـلـدـ يـقـيمـ عـلـىـ أـبـيـهـ

وـمـنـ ذـلـكـ قـوـلـ «ـالـعـتـريـ»ـ.

أـلـمـ تـكـوـنـيـ ـ زـمـانـاـ ـ قـرـةـ العـيـنـ؟ـ
وـكـانـ قـرـبـهـمـ زـيـنـاـ ـ مـنـ الزـيـنـ؟ـ
مـاـذـاـ لـقـيـتـ بـهـمـ مـنـ لـوـعـةـ الـبـيـنـ؟ـ
إـلـاـ تـحدـرـ مـاءـ الـعـيـنـ مـنـ عـيـنـيـ
وـالـدـهـرـ يـصـدـعـ مـاـ بـيـنـ الـفـرـيقـيـنـ

مـنـ ذـاـ أـصـابـكـ يـاـ بـغـدـادـ بـالـعـيـنـ
أـلـمـ يـكـنـ فـيـكـ قـوـمـ كـانـ مـسـكـنـهـمـ
صـاحـ الغـرـابـ بـهـمـ بـالـبـيـنـ فـاقـتـرـقـواـ
أـسـتـوـدـعـ اللـهـ قـوـمـاـ مـاـ ذـكـرـتـهـمـ
كـانـواـ،ـ فـفـرـقـهـمـ دـهـرـ وـصـدـعـهـمـ،ـ

وقال آخر^{١٠} في وصف وقعة:

صارت حديث الأبد
ملقي، وكم من جسد
منية بالرصد
فشك جوف الكبد
وصائح: «يا ولدي»
كان متين الجلد
غير بنات البلد
عز على المفتقد

وقدمة يوم الأحد
كم جسد أبصرته
وناظر كانت له
أتأه سهم عاشر
وصائح «يا ولدي»
وكم غريق سابق
لم يفتقده أحد
وكم فقيد بئس

إلى أن قال:

فات، ولا من أمرد
مثل التهام الأسد
عرصة مثل اللبد
حرب — بنار الود

لم يبق في كهل لهم
و«طاهر» ملتهم
خيم لا يبرح في الـ
تقذف عيناه — لدى الـ

* * *

فقاتل: «قد قتلوا
ألفاً، ولما يزد»
وقائل: «أكثر، بل
يرهب من خوف غد

وهارب نحوهم

ثم قال بعد أبيات:

ه روحة لم تؤد:
مسكين من محمد؟»
دان، ولا من بلد»
أجد له من صفد»

قلت لمطعون وفيـ
«من أنت يا ويـلـك ياـ
فقال: «لا من نسبـ
لم أره قـطـ ولمـ

وقال: «لا للغبي قا
تللت، ولا للمرشد
يصير منه في يدي»
إلا لشيء عاجل

ولعل أبدع وأحفل قصيدة قرأتها في وصف هذه النكبة المروعة التي حلت ببغداد هي
قصيدة «الخزيمي» التي نختتم بها هذا الفصل وهي — على طولها — آية من آيات
البلاغة وصدق الشاعرية ودقة الوصف، ونحن نختار منها ما يلي:

قل من النائيات واترها
وقل معسورها وعاشرها
فيها بلذاتها حواضرها
أشرق — غب الققطان — زائرها
لو أن دنيا يدوم عامرها

جنة دنيا، ودار مغبطة
درت خلوف الدنيا لساكنها
فانفرجت بالنعيم وانتجعت
فالقوم منها في روضة أنف
من غرة العيش في بلهنية

* * *

فيها، وقرت بها منابرها
ر، إذا عدت مفاخرها
شد عراها لها أكابرها
يقدح في ملكها أصغرها
من فتنة، لا يقال عاثرها
مقطوعة بينها أواصرها
إذ لم يزعها بالنصح زاجرها
هوة غي أعيت مصادرها
واستحكمت — في التقى — بصائرها
وتبتلع فتنة تكبرها
لها ورغب النفوس ضائرها

دار ملوك رست قواعدها
أهل العلى والثرى وأندية الفخ
أفراخ نعمى في إرث مملكة
فلم يزل — والزمان ذو غير —
حتى تساقت كأساً مثملة
وافترقت — بعد ألفة — شيئاً
يا هل رأيت الأملك ما صنعت
أو رد أملاكنا نفوسهم
ما ضرها لو وفت بموثقها
ولم تسافك دماء شيعتها
وأقنعتها الدنيا التي جمعت

إلى أن يقول:

يُروق عين البصير زاهرها؟
تكن مثل الدمى مقاصرها؟
لاك مخضرة دساكيرها؟
سان، قد ميت محاجرها
ينكر منها الرسوم داثرها
إِلْفًا لها والسرور هاجرها

يا هل رأيت الجنان زاهرة
وهل رأيت القصور شارعة
وهل رأيت القرى التي غرس الأم
فإنها أصبحت خلايا من الإنـ
ففرا خلا تعوي الكلاب بها
وأصبح البؤس ما يفارقها

ثم يقول بعد أبيات:

وأين مجبورها وجابرها؟
وأين سكانها وعامرها؟
بـش تـعدـو هـدـلـاً مشـافـرـها
تـعدـو بـهـا سـرـبـاً ضـوـامـرـها
بـهـ، شـيـبـتـ بـهـا بـرـابـرـها
يـقـدـمـ سـوـدانـها أحـامـرـها؟

* * *

ك تهادي بها غرائبرها
وأين محبورها وحابرها؟
جوج مشبوبة مجامرها؟
شى مخطومة مزامرها
يجبن حيت انتهت حناجرها
رض عيدانها مزامرها؟
يسعرها بالجحيم ساعرها
عاد ومستهم صراصرها؟
من حادث الدهر أو يباكرها

أين الظباء الأبكار في روضة المل
أين غضاراتها ولذتها؟
المسك والعنبر اليماني والأذ
يرفلن في الخز والمجاسد والمو
فأين رقاصها وزامرها
تكاد أسماعهم تسل إذا عا
أمست «كجوف الحمار» خالية
كأنما أصبحت بساحتهم
لا تعلم النفس ما بياتتها

إلى أن يقول:

دارت على أهلها دوائرها
لما أحاطت بها كبائرها
ب التي أصبحت تساورها
داهية لم تكن تحاذرها
وأدركت أهلها جرائرها
الفضل وعز النساء فاجرها
بالرغم واستعبدت مخادرها
وابتز أمر الدروب ذاعرها
قد ربّقت حولها عساكرها

يا بؤس بغداد دار مملكة
أمهلها الدهر، ثم عاقبها
بالخسف والقذف والحريق وبالحر
حلت ببغداد — وهي آمنة —
طالعها السوء من مطالعه
رق بها الدين واستخف بذى
وخطم العبد أنف سيده
وصار رب الجيران فاسقهم
من ير بغداد والجنود بها

ثم يقول بعد أبيات:

ويشتفي بالنهاب شاطرها
يستن عياراتها وعائرها
آساد غيل غالباً تساورها

بحرقها ذا، وذاك يهدّمها
والكرخ أسوقها معطلة
أخرجت الحرب من سواقتها

* * *

يحشرها للقاء حاشرها

لا الرزق تبعي ولا العطاء، ولا

ثم يقول بعد أبيات:

أبدت خلاخيالها حرائرها
أبرزها للعيون ساترها
لم تبد في أهلها محاجرها
للناس منشورة غدائيرها
كبة خيل زيعت حوافرها
والنار من خلفها تبادرها

والنهب تعدو به الرجال، وقد
معصوبات وسط الأرقة، قد
كل رقود الضحى مخبأة
بيضة خدر مكونة بربت
تعثر في ثوبها، وتعجلها
تسأل: «أين الطريق؟» والهة

لم تجتل الشمس حسن بهجتها حتى اجتلتها حرب تباشرها

* * *

في الطرق تسعى، والجهد باهرا؟
في صدره طعنة يساورها
ل، وعز الدموع خامرها
مطلولة، لا يخاف ثائرها
يا هل رأيت الثكلى مولولة
في إثر نعش عليه واحدها
تنظر في وجهه، وتهتف بالثك
غرغر بالنفس، ثم أسلمها

* * *

المعرك معقورة مناخرها؟
تشقى بها في الوغى مساعرها
مخضوبة من دم أظافرها
بالقوم منكوبة دوائرها
لى، وغلت دماً أشاعرها
تفلق هاماتهم حوافرها
وهل رأيت الفتىان في عرصة
كل فتى مانع حقيقته
باتت عليه الكلاب تنهشه
أما رأيت الخيول جائلة
تعثر بالأوجه الحسان من القت
يطأن أكباد فتية نجد

* * *

ق تعادي شعثاً ضفائرها
كتاف معصوبة معاجرها
تشدحها صخرة تعاورها
وابتز عن رأسها غفائرها
أما رأيت النساء تحت المجاني
يحملن قوتاً من الطحين على الأ
وزات عيش ضنك ومقعسة
تسأل عن أهلها، وقد سلبت

إلى أن يقول:

وقد تناهت بنا مصائرها هل ترجعن أرضنا كما غنيت
وهكذا إلى آخر هذه القصيدة الرائعة.

هوامش

(١) انظر إلى الأمين — وقد ضيق عليه طاهر الحصار — ونفت أمواله وأمر بعض خدامه ببيع ما بقي في الخزائن فوجد أصحابه قد انتهواها ولم يبقوا فيها شيئاً. ثم طلب الناس الأرزاق فقال متضجراً: «وددت أن الله قتل الغريقين جميعاً وأراح الناس منهم؛ فما منهم إلا عدو — من معاً ومن علينا — أما هؤلاء فيريدون مالي، وأما أولئك فيريدون نفسي». «

وانظر إليه، وقد تفرق عنه عامة جنده وخصيانته وجواريه في السكك والطرق، لا يلوى أحد منهم على أحد.

قالوا: «وحاصره طاهر وأخذ عليه الأبواب». ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما.

وما زال طاهر يضيق عليه الحصار حتى لم يبق عند الأمين ما يأكله، كما يحدثنا بذلك خادمه الذي نترك له رواية ذلك:

سألني الأمين — ذات يوم من الأيام وهو محصور — أن أطعمه شيئاً، فدخلت المطبخ فلم أجده شيئاً، فجئت إلى جارية فقلت: «إن أمير المؤمنين جائع، فهل عندك شيء فإني لم أجده في المطبخ شيئاً». فقالت لجارية أخرى: «أي شيء عندك؟» فجاءت بدباجة ورغيف فأتيته بهما فأكل.

وطلب ماء يشربه فلم يوجد في خزانة الشراب، فأمسى، وقد كان عزم على لقاء «هرثمة» مما شرب حتى أتى عليه.

(٢) وفي رواية أخرى: «وبينما نحن كذلك إذا هدة تقاد الأرض ترجمف فيها، وإذا أصحاب طاهر قد دخلوا الدار وأرادوا البيت — وكان في الباب ضيق — فدافعواهم محمد بمجننة كانت معه في البيت، فما وصلوا إليه حتى عرقبوا ثم هجموا عليه فحزوا رأسه». (٣) قال الراوي: فقمت فصرت خلف الحصر المدرجة في زاوية البيت خيفة القتل، ولما كان وقت السحر جاءوا إلى جثته فأذرجوها في جل وحملوها.

(٤) وكان مصرع الأمين ليلة السبت لست بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ وعمره سبعة وعشرون عاماً بعد أن حكم أربع سنين وثمانية أشهر.
ومن أروع ما قرأناه في رثائه قول أبي نواس:

طوى الموت ما بيضي وبين محمد
فلا وصل إلا عبرة تستديمها
لئن عمرت دور بمن لا أوده
وكنت عليه أحذر الموت وحده
وليس لما تطوي المنية ناشر
أحاديث نفسي ما لها الدهر ذاكر
لقد عمرت ممن أحب المقابر
فلم يبق لي شيء عليه أحذر

ومن أشنع ما قرأناه في الشماتة به – وهو كثير – قول أحد البغداديين:

يا ناكثاً أسلمه نكثه
قد جاءك الليث بشداته
فاهرب – ولا مهرب من مثله –
عيوبه – من خبته – باديه
مستكلاً في أسد ضاريه
إلا إلى النار أو المهاويه

(٥) ومن غرائب الأمور أن الأمين أغراه بعد ذلك بالمال حتى وافقه على غدره والنكث بعهده.

(٦) قالوا: «ونهى الفضل بن الربيع عن ذكر المؤمن والقاسِم والداعِي لهما على شيء من المنابر».

(٧) انظر ص ١٤٣ من تاريخ الطبرى (ج ١).

(٨) قالوا: «وصبر الفريقان جميعاً، وعلت ميمونة «علي» على ميسرة «طاهر» ففضتها فضاً منكراً. وميسرتها على ميمنته فأزالتها عن موضعها». وهذا ما قال طاهر لأصحابه: اجعلوا بأسكم على كراديس القلب فإنكم لو فضتم منها راية واحدة رجعت أولائلها إلى أواخرها».

قالوا: «فصبر أصحابه صبراً صادقاً، ثم حملوا على أولى رايات القلب فهزموهم وأكثروا فيهم القتل، ورجعت الرايات – بعضها على بعض – وانتقضت ميمونة على ورأى أصحاب ميمونة طاهر وميسرتها ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان في وجوههم فهزموهم، وانتهت الهزيمة إلى «علي» فجعل ينادي أصحابه، ورماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا السيف فيهم حتى هزمواهم».

مصارع الخلفاء

- (٩) هو عمرو بن عبد الملك.
(١٠) وقعة بالكناسة باشرها طاهر بنفسه.

مشرع المتكول

ولم يكن أمير المؤمنين في يوم من الأيام أسر منه في ذلك اليوم، أخذ مجلسه، ودعا بالنديماء والمغنين وأخذ في الشراب واللهو، ولهج يقول: «أنا والله مفارقكم عن قليل!»

الطبرى

لا أذكر مشرع المتكول¹ دون أن أتمثل معه سوء التصرف، والإسراف في الحذر وسوء الظن وما جناه ذلك عليه من البوار والتلف.
لقد جنى المتكول على نفسه، وأمعن في الإساءة إلى ابنه المنتصر، ولم يدع فرصة للزيارة عليه والتهكم به إلا انتهزها!
لقد أحس قلبه أن مشرعه سيكون على يد ابنه وفلذة كبده، ونما فيه هذا الإحساس حتى أصبح يقيناً.

وللنفس أحوال تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد

وثم أصبح لا يطيق رؤية هذا الولد العاق الذي لا يراه إلا تمثل فيه شبح الجلاد! وهكذا صدق المثل القائل: إن من خشي العفريت لم يلبث أن يراه.
شعر المتكول أن ابنه المنتصر هو قاتله، ومثل اسمه في ذهنه «المنتظر» فأصبح لا يناديء بغير هذا اللقب، وكثيراً ما قرعه وأهانه وسلط عليه من يؤذيه ويصفعه من أتباعه، وربما صارحه بما يجهه لهذا الابن من الاحتقار والمقت، وربما قال له إنه لا يطيق أن يرى أمامه قاتلاً يتربص الفتاك به، وما أكثر ما استفزه وأمعن في إيلامه امعاناً.

قالوا: وكان يقول له: أنت تتمنى موتي وتنتظر وقتي!
ثم يأمر الندمان أن يبعثوا به.

(١) أسباب الخلاف والكره

قال ابن خلدون:

- (١) كان المتكى قد عهد إلى ابنه المنتصر، ثم ندم وأبغضه، لما كان يتوهّم منه استعجاله الأمر لنفسه. وكان يسميه «المنتظر» «والمستعجل» لذلك.
- (٢) وكان المنتصر ينكر عليه انحرافه عن سنن سلفه فيما ذهبوا إليه من مذهب الاعتزال والتسيّع لعلي! وربما كان الندمان في مجلسه يفيضون في ثلب علي! فينكر المنتصر ذلك ويتهدهم ويقول للمتكى: «إن علياً هو كبير بيتنا، وشيخ بنى هاشم، فإن كنت لا بد ثالبه، فتول ذلك بنفسك، ولا تجعل لهؤلاء سبيلاً إلى ذلك!»
- (٣) فيستخف به ويشتمه، ويأمر وزيره «عبد الله» بصفعة، ويتهده بالقتل، ويصرح بخليه.
- (٤) قالوا: وربما استخلف غيره في الصلاة والخطبة مراراً، وتركه! فطوى من ذلك على النكث.

(٢) نتائج الحقد

وكانما كان يوحى إليه — بمثل هذه الأفعال — أن يحقق هذه النبوءة المروعة، ويرسم له — بما يأتيه من تلك الحماقات المتوالية — خطة ممهدة واضحة السبيل للفتك به، بعد أن أثبتت في روعه أن حينه لن يكون إلا على يديه. وقد أفلح المتكى في ذلك، وانتهى به الأمر إلى إيغار صدره، وإثارته لمناؤاته والفتكت به.

(٣) الليلة الأخيرة

جاءت ليلة الأربعاء (٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ) وكان المتكول يشرب مع الفتح^٢ في قصره المعروف بالجعفري، ومعه جماعة من النداماء والمغنين.

قالوا: ولم يكن أمير المؤمنين في يوم من الأيام أسر منه في ذلك اليوم، وقد أخذ مجلسه،^٣ ودعا بالنداماء والمغنين، وأخذ في الشراب واللهو ولهج يقول: «أنا والله مفارقكم عن قليل.»

(٤) كيف صرّع

بعد العتمة بساعة أغلقت الأبواب كلها، إلا باب الماء — الذي دخل منه القتلة — وكان المتكول حينئذ ثملاً!

وجاء غلام تركي اسمه «باغر» فضرب المتكول ضربة، قطع بها حبل عاتقه!

(٥) وفاة صديقين

وليس يسعنا أن نمر بهذا الموضوع دون أن يطيف بخاطرنا ثلاثة أمور: إخلاص الفتح بن خاقان في هذه الساعة الحرجية. ووفاء البحترى له وفاء أذهله عن كل احتياط، وكاد يكون سبباً في إهلاكه. وعقوق ابنه المنتصر، الذي اشترك في قتل أبيه؛ فأماماً الفتح بن خاقان فإنه أسرع إلى سيده حين رأه مضرجاً بدمائه، ورمى بنفسه عليه، وقال: «ويلكم تقتلون أمير المؤمنين؟» فبعجوه بسيوفهم فقتلوه!

وأما البحترى، فرثاه بقصيده الخالدة التي نعدها من أروع ما قرأتناه في الرثاء، ونرى فيها مثلاً من أعلى أمثلة الإخلاص والوفاء وقد ختمنا بها هذا الفصل، وأماماً المنتصر، فإن مدته في الخلافة لم تطل. ولم تزد على ستة أشهر.

قالوا: «وهي مدة شيرويه بن كسرى بعد أن قتل أباه!»

(٦) قصيدة البحترى

وإلى القارئ قصيدة البحترى الفذة، التي صرخ فيها – كما يقول الثعالبى – تصريح من أذهله المصابب عن تخوف العواقب، قال:

تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأَنْسُهُ
تَحَمَّلْ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْقَصْرِ إِذْ رَيْعَ سَرْبَهُ
وَإِذْ صَيْحَ فِيهِ بِالرَّجِيلِ فَهُتَّكَتْ
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَ لَنَا الْأَسْيَ
فَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ
تَخَفَّى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غَرَّةً
صَرِيعَ تَقْاضَاهُ السَّيُوفُ حَشَاشَةً

* * *

دَمًا بَدْم يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرَه
مَدِي الدَّهْرِ وَالْمُوتُورُ بِالْدَمِ وَاتِّرَه
وَلَا حَمَلتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرَه!

حَرَامَ عَلَى الرَّاحِ – بَعْدَكِ – أَوْ أَرَى
وَهُلْ يَرْتَجِي أَنْ يَطْلُبَ الدَّمَ طَالِبَ
فَلَا مُلْيَ الْبَاقِي تِرَاثَ الذِّي مَضَى

هوامش

(١) كان المتوكل أسمر، نحيفاً، حسن العينين، خفيف العارضين، هذه هي صورته التي ذكرها لنا التاريخ.

وقد ولـى الخليفة وهو في السادسة والعشرين من عمره سنة ٣٢٣ ومات وهو ابن أربعين عاماً، فهو قد مكث في الخليفة نحو أربعة عشر عاماً وعشراً شهر. ومما يجدر ذكره هنا أنه عقد البيعة لبنيه الثلاثة بعد ثلاثة أعوام من ولادته فولـى:

- (١) المنتصر: العراق والنجاشي واليمن.
- (٢) المعتنى: خراسان والري.
- (٣) المؤيد: الشام.

مصرع المتكى

ومن أظهر ما فعله، أنه أمر بهدم قبر الحسين بن علي، وأمر أن يبذر ويُسقى موضعه ومنع الناس من إتيانه.

(٢) هو الفتح بن خاقان.

(٣) كان المتكى — إذ ذاك — في سرّ مَنْ رأى.

مشرع المعذ

ثم أدخلوه سرداً وجصصوه عليه فمات.

المؤرخون

(١) سبب مشرعه

قالوا: «إن الأتراك طلبوا منه^١ أرزاقهم فلم يكن عنده مال يعطينهم، فأرسل إلى أمه يسألها مالاً، فقالت له: «ما عندي شيء».

قالوا: فاتفق الأتراك والمغاربة والفراعنة على خلع المعذ، فساروا إلى بابه فقالوا: «أخرج إلينا».

فقال: «قد شربت أمس دواء، وقد أفرطت في العمل، فإن كان لا بد من الاجتماع فليدخل بعضكم إلى^٢».

(٢) كيف صرع

فدخل إليه جماعة منهم فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس».

فكان — كما يقول المؤرخون — يرفع رجلاً ويطوي أخرى لشدة الحر.

وكان بعضهم يلطممه وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة وأحضروا القاضي^٣ وجماعة فأشهدوهم على خلعه.

ثم سلموا المعتر إلى من يعذبه، ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أدخلوه سرداً وجصصوه عليه فمات، ودفنه بسامرا مع المنتصر.

هوا مش

(١) هو ابن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن الرشيد، وكنيته أبو عبد الله. وكان أبيض أسود الشعر، وقد ولد بسر من رأى سنة ٢٣٢ هـ. مكثت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر إلا سبعة أيام وكان عمره أربعًا وعشرين سنة وثلاثة وعشرين يوماً. وكان اسم أمه «قبيبة».

قالوا: وكان قد سماها المتوكل ذلك لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافور، قالوا: وكان لها أموال عظيمة ببغداد، وكان لها مطمور تحت الأرض نحو ألف ألف دينار.

ووجد لها في سقط قدر مكوك زمرد، وفي سقط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ، وفي سقط بلحة ياقوت لا يوجد مثله ونبش ذلك كله!
(٢) وكان اسم القاضي «أبا الشوارب».